اختيار الأولى

في شرح حديث

«اختصام الملأ الأعلى»

دار اللباب

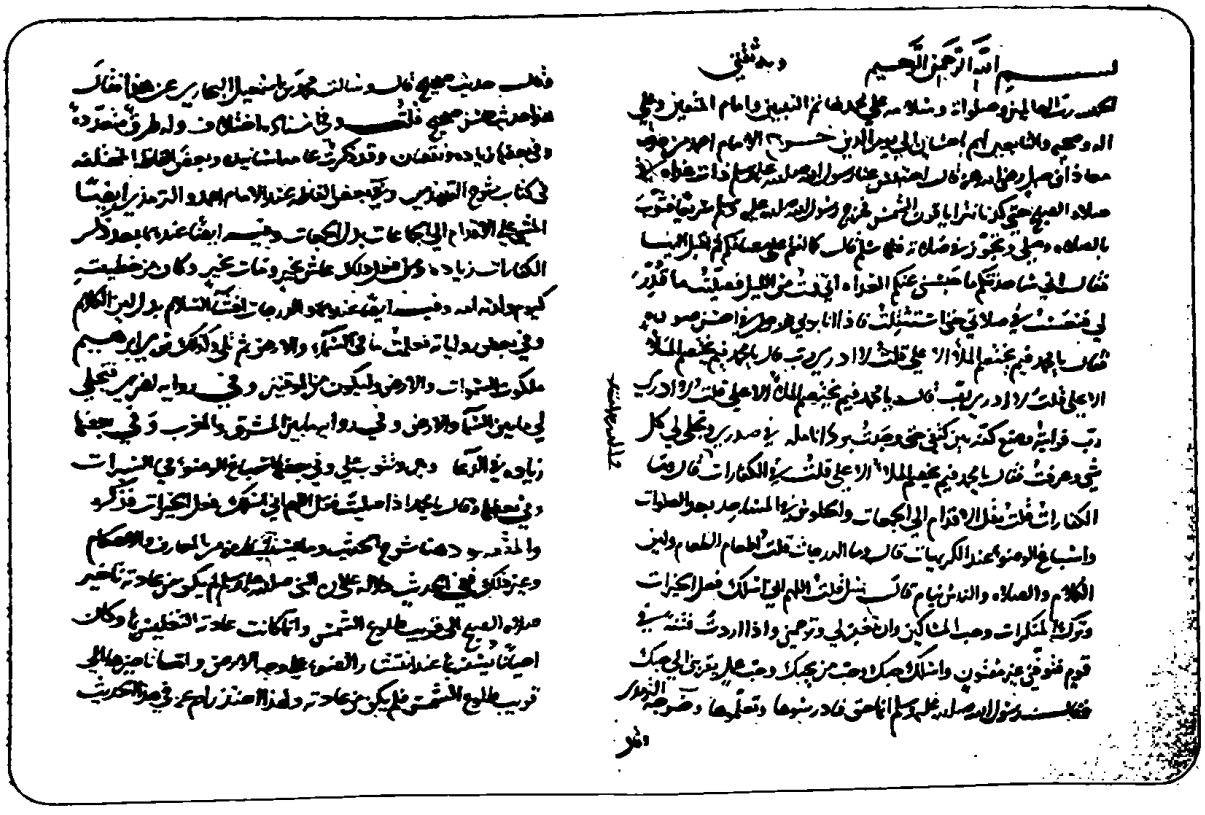

مكتبة شستربتي (ش)

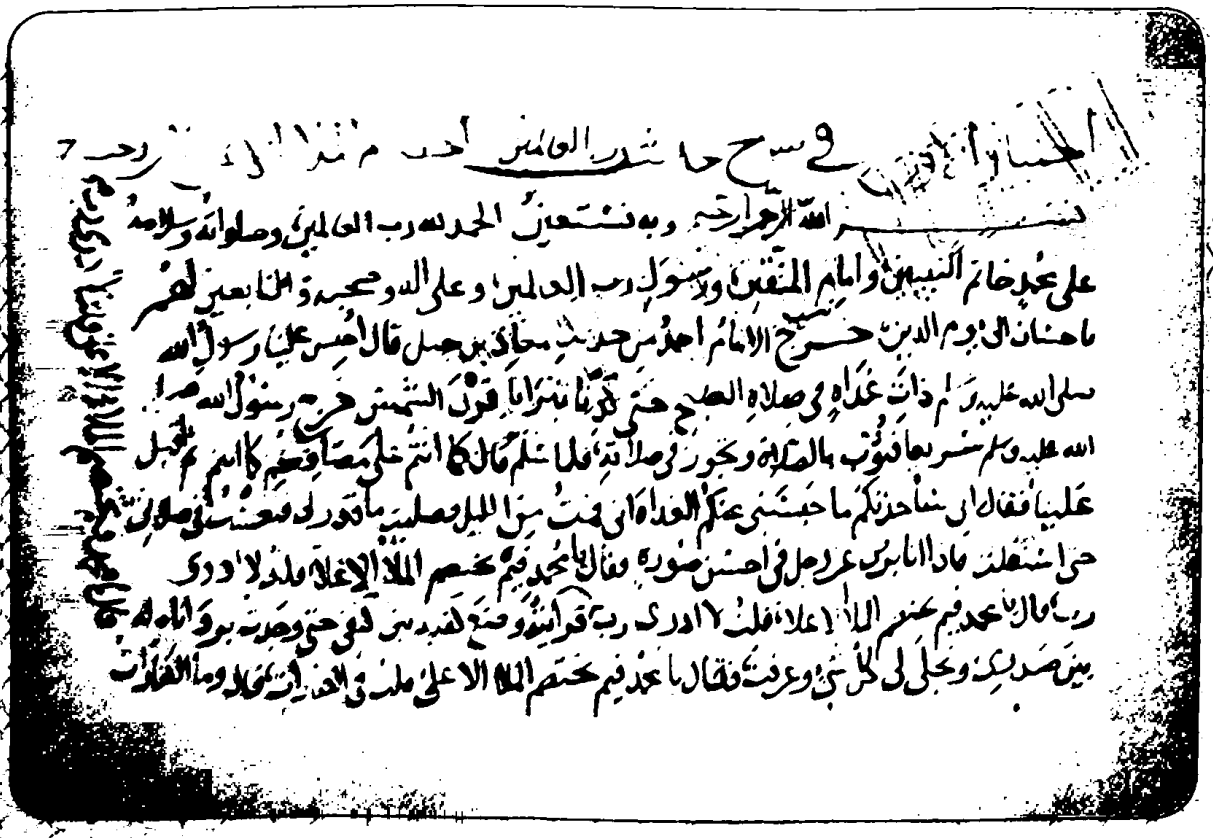

دار الكتب الوطنية بتونس (ت)

البيتي الشاعر سعد

أشر أن سفر قان لست تراهما ... تشوفان لخلطة وتلاف

طلب المعادمع الرياسة والعلا ... فدع الذي يفني لما هو باقي

م والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين عدد ما ذكر رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

شرح حديث اختصام الملأ الأعلى

للشيخ زين الدين عبد الرحمن بن رجب رحمه الله تعالى

الرابعة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين ٥ الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلامه على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ورسول رب العالمين وعلى آله والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ٥ خرج الإمام أحمد من حديث معاذ بن جبل قال احتبس علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة في صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا فثوب بالصلاة وتجوز في صلاته فلما سلم قال كما أنتم على مصافكم كما أنتم ثم أقبل علينا فقال إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استثقلت فإذا ربي عز وجل في أحسن صورة فقال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا أدري رب قال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى قلت لا أدري رب قال يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى فقلت لا أدري

رحمه الله قال وجامع الأصول المراد أنه أتاه في أحسن صفة على ما ورد في شفاء العليل عن ص

في أحسن صورته وهو حال منه عليه السلام أو من ربه ولا إشكال فيه كما قال البعض أو أن ضمير الفاعل غير المستتر وعليه لا يعد ذلك خللا في الرواية والله أعلم

ثم أمر بالاختصام فقام في مقعد فضل فعله الأعلى

قال لا أدري أي رب والله أعلم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله المتفضِّل على عباده بالجزاء الأوفى، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صاحب لواء الحمد في المقام الأعلى، وعلى آله وأصحابه ذوي الشرف الأسمى، وعلى من تبعهم واهتدى بهديهم الأزكى.

أما بعد:

فحديث اختصام الملأ الأعلى حديث جليل، يرويه معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، وقد شرحه المصنف رحمه الله تعالى لمن يريد العمل، ولم يدخل فيه بميدان الجدل.

فاقتصر على حظِّ العبد المقصود منه، وما يُستنبط منه من المعارف والأحكام، وذِكر الكفارات والدرجات والدعوات، وعقد لكل واحدة منها فصلاً مفرداً.

فذكرَ الكفارات: التي تمحو الخطايا والسيئات، وهي إسباغ الوضوء في الكريهات، ونقل الأقدام إلى الجمعات والجماعات، والجلوس في المساجد بعد الصلوات.

وذكر الدرجات: وهي إطعام الطعام، ولين الكلام، والصلاة بالليل والناس نيام، وما لكلٍ من الكفارات والدرجات من الفضائل وحسن العوائد والفوائد، نصاً واستنباطاً من التنزيل العزيز، ومن كلام المصطفى الهادي ﷺ، ومن أقوال الصحابة والتابعين والعارفين رضي الله عنهم.

ثم ذكر بعد ذلك الدعوات، وهي أدعية عظيمة من أجمع الأدعية وأكملها، مما تضمن طلب كل خير وترك كل شر، وقد كان ﷺ يستحب تلك الأدعية الجامعة.

لم يخض الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى في شرح وتفسير ما لا يجوز الخوض فيه. وهذه طريقة السلف رضي الله عنهم من القرون المشهود لها بالخير.

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى مقرراً ذلك:

«وأما وصف النبي ﷺ لربه عز وجل بما وصفه به - أي في هذا الحديث - فكل ما وصف به النبي ﷺ ربه فهو حق وصدق يجب الإيمان والتصديق به، كما وصف الله عز وجل به نفسه مع نفي التمثيل عنه، ومَنْ أشكل عليه فهم شيء من ذلك واشتبه عليه، فليقل كما مدح الله تعالى به الراسخين في العلم، وأخبر عنهم أنهم يقولون عند المتشابه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، وكما قال النبي ﷺ في القرآن: «وما جهلتم منه فَكِلُوه إلى عالمه» خرجه الإمام أحمد والنسائي وغيرهما، ولا يتكلف ما لا علم له به، فإنه يخشى عليه من ذلك الهَلَكة».

نعوذ بالله من الهَلَكة، ومن الخوض في الآراء المُهْلِكة.

* * *

ذكرَ هذا الكتاب للمصنف رحمه الله: ابن عبد الهادي في «الجوهر المنضد» (ص: ٥٠) فقال وهو يعدد كتبه: «وكتاب حديث اختصام الملأ الأعلى».

ونقل منه المرداوي في «الإنصاف» (١/ ٤٣٨)، والغزي في «حسن التنبه» (٣/ ٤٧٢)، والسفاريني في «كشف اللثام» (٢/ ٢٦٠) (٣/ ٤٩)، وفي «غذاء الألباب» (٢/ ٥٠٠). وهو مما يرويه الروداني في «صلة الخلف» (ص: ٢٧٦).

وقد اعتمدت في إخراج هذا الكتاب على ثلاث نسخ خطية:

١ ـ نسخة مكتبة شستربتي، ورمزها (ش).

وهي الرسالة الخامسة في ضمن المجموع (٣٢٩٢)، تقع في (٣٢) لوحة (من ص: ١٠٣ إلى ص: ١٣٤)، ومسطرتها ١٧ ـ ٢٢ سطراً.

لا يوجد اسم الناسخ ولا تاريخ النسخ.

ويظهر في هذه النسخة ثلاثة خطوط مختلفة: فاللوحات العشرين الأولى يشبه خطها خط كتاب «الطب النبوي» لابن القيم في هذا المجموع، وهو بخط أحمد بن أبي بكر الطبراني الكاملي، المتوفى سنة ٨٣٥ رحمه الله تعالى[1].

ثم اللوحات التي تليها بخط آخر، وصفحة الورقة الأخيرة بخط ثالث، وهي جميعاً من خطوط القرن التاسع الهجري.

٢ ـ النسخة التونسية، ورمزها (ت).

وهي الرسالة الرابعة في ضمن المجموع (١٥٧)، وتقع في (٢٠) لوحة، (من ٢٨/ ب إلى ٤٧/ أ).

لم يذكر اسم الناسخ.

أما تاريخ النسخ: فيوم الثلاثاء ١٧ المحرم ٨٥٢.

وهي مقابلة وعلى حواشيها بلاغات وتصحيحات.

٣ ـ نسخة الفاتح، في إصطنبول، ورمزها (ف).

وهي الرسالة الرابعة في ضمن المجموع (٥٣١٨)، وتقع في (٤١) لوحة، (من ٥٩/ ب إلى ٩٨/ أ).

---

(١) انظر ترجمته في «المقصد الأرشد» لابن مفلح (١/ ٨١)، و«المنهج الأحمد» للعليمي (٥/ ٢١٤).

ناسخها: عيسى بن علي بن محمد الحوراني الشافعي.

وتاريخ الفراغ من نسخ المجموع: ٥ ربيع الأول ٨٩٣.

وعلى حواشي النسخة في أوائلها تعليقات نقلها كاتبها من «شرح الشفا» لملا علي القاري.

٤ ـ **وثمة نسخة رابعة لم نرجع إليها لتأخرها**، وهي نسخة مكتبة الرياض العامة السعودية، ضمن المجموع (رقم ٥٢٧/ ٨٦). وهي الرسالة الثانية منه، تقع في (٢٣) لوحة (من ١٠/ أ إلى ٣٢/ أ).

وعليها ختم «وقف الشيخ محمد بن عبد اللطيف».

وللكتاب نسخ أخرى.

ـ منها نسختا جامعة برنستون ـ مجموعة يهودا، رقم (٤١٦١)، والنسخة الثانية، برقم (٣١٢١).

ـ ومنها: نسختان بغداديتان، في مكتبة الأوقاف (مجموع ٤٧٥٤)، و(مجموع ٤٧٦٧).

ـ ونسخة في الإمبروزيانة بإيطالية.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

كتبه

محمد مجير الخطيب الحسني

***

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي[1]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلاتُه وسلامُه على محمَّدٍ خاتَمِ النَّبيِّين وإمامِ المتَّقين ورسولِ ربِّ العالمين، وعلى آلِه وصحبِه، والتَّابعين لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ [رحمَه اللهُ] مِنْ حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه قال: احتبسَ علينا[2] رسولُ الله ﷺ ذاتَ غداةٍ في صلاة الصُّبحِ حتَّى كِدْنا نتراءَى قَرْنَ الشَّمسِ، فخرجَ رسولُ الله ﷺ سريعاً، فثُوِّبَ بالصَّلاةِ، وصلَّى، وتجوَّزَ في صلاتِه، فلمَّا سلَّمَ قال: «كما أنتم على مَصافِّكم، كما أنتم»، ثمَّ أقبلَ إلينا[3] فقال: «إنِّي سأحدِّثُكم ما حبَسَني عنكم الغداةَ، إنِّي قمتُ مِنَ اللَّيلِ فصلَّيتُ ما قُدِّرَ لي، فنعَستُ في صلاتي حتَّى استُثْقِلتُ[4]، فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسنِ صورةٍ، فقال: يا محمَّدُ! فيمَ[5] يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمَّدُ! فيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمَّدُ! فيمَ يختصِمُ الملأُ

---

(١) في (ت) و(ف): «وبه نستعين».

(٢) في (ش): «عنا». وهو موافق لما في «الترمذي»، ووقع في (ت) و(ف) مضبوطاً: «أُحبِس».

(٣) في (ت) و(ف): «علينا».

(٤) في «المسند»: «استيقظت»، والمثبت موافق لما في «الترمذي».

(٥) في «المسند» و«الترمذي»: «أتدري فيم..».

الأعلى؟ قلتُ: لا أدري ربِّ، فرأيتُه وضَعَ كفَّه[١] بين كِتفَيَّ حتَّى وجدتُ بَرْدَ أناملِه بين[٢] صدري، وتجلَّى لِي كلُّ شيءٍ وعرفتُ، فقال: يا محمَّدُ! فيمَ يختصِمُ الملأُ الأعلى؟ قلتُ: في الكفَّاراتِ[٣].

قال: وما الكفَّاراتُ؟ قلتُ: نَقْلُ الأقدامِ إلى الجُمُعات، وجلوسٌ[٤] في المساجدِ بعد الصَّلوات، وإسباغُ الوضوءِ عند الكريهاتِ.

قال: وما الدَّرجاتُ؟ قلتُ: إطعامُ الطَّعامِ، ولِينُ الكلامِ، والصَّلاةُ والنَّاسُ نِيامٌ.

قال: سَلْ، قلتُ: اللَّهمَّ إنِّي أسألكَ فِعْلَ الخيراتِ، وتَرْكَ المنكراتِ، وحُبَّ المساكينِ، وأنْ تغفِرَ لي وترحمَني، وإذا أردتَ فتنةً في قومٍ فتوفَّنِي غيرَ مَفْتُونٍ، وأسألكَ حبَّكَ، وحُبَّ مَنْ يُحبُّكَ، وحُبَّ عملٍ يقرِّبُني إلى حُبِّكَ، وقال رسولُ اللهِ ﷺ: إنَّها حقٌّ، فادرُسُوها وتعلَّمُوها»[٥].

وخرَّجَه التِّرمِذِيُّ وقال: حديثٌ [حسنٌ][٦] صحيحٌ، قال: وسألتُ محمَّدَ ابنَ إسماعيلَ ـ يعني البُخاريَّ ـ عن هذا، فقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[٧].

قلتُ: وفي إسنادِه اختلافٌ، وله طرقٌ متعدِّدةٌ، وفي بعضِها زيادةٌ ونُقْصانٌ، وقد ذكرتُ عامَّةَ أسانيدِه وبعضَ ألفاظِه المختلفةِ في كتابِ «شرحِ التِّرمذيِّ»[٨].

---

(١) تصحفت في (ت) و(ف) إلى: «كفيه».

(٢) في (ش): «في».

(٣) زاد في (ش): «والدرجات» وليست في «المسند» ولا في «الترمذي».

(٤) في (ش): «والجلوس» وهو موافق للترمذي.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢١٠٩).

(٦) لا توجد في (ت) و(ف).

(٧) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥) ولا يوجد هذا الحديث في نسخة الكروخي من «الجامع الكبير» للترمذي.

(٨) وهو من الكتب التي فقدت عند اجتياح تيمورلنك لدمشق سنة ٨٠٣هـ.

وفي بعضِ ألفاظِه عند الإمامِ أحمدَ والتِّرْمِذِيِّ أيضاً: «المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ» بدلُ «الجمُعاتِ»(١).

وفيه أيضاً عندهما بعد ذكرِ الكفَّاراتِ زيادةُ: «ومَنْ فعلَ ذلكَ عاشَ بخيرٍ وماتَ بخيرٍ، وكان مِنْ خطيئتِه كيومِ ولدته أمُّهُ»(٢).

وفيه أيضاً عندهما: «والدَّرجاتُ إفشاءُ السَّلامِ» بدلُ «لينِ الكلامِ»(٣).

وفي بعضِ رواياتِه: «فَعَلِمْتُ ما في السَّماءِ والأرضِ، ثمَّ تلا: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥](٤).

وفي رواية أخرى: «فتجلَّى لي ما بين السَّماءِ والأرضِ»(٥).

وفي رواية: «ما بين المشرقِ والمغربِ»(٦).

وفي بعضِها زيادةٌ في الدُّعاءِ الَّذي فيه، وهي: «وتتوب عليَّ»(٧).

---

(١) عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٢١٠) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ، والترمذي (٣٢٣٥) من حديث معاذ رضي الله عنه.

(٢) عند الإمام أحمد في «المسند» في الموضع السابق نفسه، وفي (٣٤٨٤) من حديث ابن عباس، والترمذي (٣٢٣٣، ٣٢٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) في «المسند» (٣٤٨٤)، والترمذي (٣٢٣٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٢١٠) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ، ولفظه: «حتى تجلى لي ما في السماوات وما في الأرض»، والطبري في «تفسيره» (٩/ ٣٥٤) من حديث عبد الرحمن بن عائش الحضرمي، ولفظ: «فعلمت ما في السموات والأرض»...

(٥) وهي عند الطبراني في «الدعاء» (١٤١٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٦) عند الترمذي (٣٢٣٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنه.

(٧) عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٢١٠) من حديث بعض أصحاب النبي ﷺ، والطبراني في الدعاء (١٤١٨) من حديث عبد الرحمن بن عائش، ولفظهما: «وأن تتوب عليَّ».

وفي بعضِها: «إسباغُ الوضوءِ في السَّبَرَاتِ[١]»[٢].

وفي بعضِها: «وقال: يا محمَّدُ! إذا صلَّيْتَ فقل: اللَّهُمَّ إنِّي أسألكَ فِعْلَ الخيراتِ» فذكرَه[٣].

والمقصودُ هاهنا شرحُ الحديثِ، وما يُستنبَطُ منه مِنَ المعارفِ والأحكامِ وغيرِ ذلك.

ففي الحديثِ: دلالةٌ على أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يكن مِنْ عادتِه تأخيرُ صلاةِ الصُّبحِ إلى قريبِ طلوعِ الشَّمسِ، وإنَّما كانت عادتُه التَّغليسَ بها، وكان أحياناً يُسْفِرُ بها عند انتشارِ الضَّوءِ على وجهِ الأرضِ، وأمَّا تأخيرُها إلى قريبِ طلوعِ الشَّمسِ فلم يكن مِنْ عادتِه، ولهذا اعتذرَ لهم عنه في هذا الحديثِ.

وقد قيل: إنَّ تأخيرَها إلى هذا الإسفارِ الفاحشِ لا يجوزُ لغيرِ عذرٍ، وإنَّه وقتُ ضرورةٍ؛ كتأخيرِ العصرِ إلى بعد اصفرارِ الشَّمسِ، وهو قولُ القاضي مِنْ أصحابِنا في بعضِ كتبِه[٤]، وقد أومأَ إليه الإمامُ أحمدُ وقال: هذه صلاةُ مفرِّطٍ، إنَّما الإسفارُ أنْ ينتشِرَ الضَّوءُ على الأرضِ[٥].

---

(١) «السَّبَرات» جمع «سَبْرة»: وهي الغداة الباردة، كما في «القاموس».

(٢) عند الطبراني في «الدعاء» (١٤١٥) من حديث معاذ رضي الله عنه، و(١٤١٦) من حديث أبي عبيدة رضي الله عنه.

(٣) عند الإمام أحمد في «المسند» (٣٤٨٤)، والترمذي (٣٢٣٣) واللفظ له، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) عزاه المصنف في «فتح الباري» (٤/ ٤٥٣) إلى كتاب «المجرد» للقاضي أبي يعلى.

(٥) نقله المصنف في «فتح الباري» (٤/ ٤٥٣)، وهو في «مسائل الإمام أحمد بن حنبل ـ رواية ابن هانئ» (١/ ٣٩). ونقله عن المصنف: المرداوي في «الإنصاف» (١/ ٤٣٨).

وفي الحديث: دلالةٌ على أنَّ مَنْ أخَّرَ الصَّلاةَ إلى آخرِ الوقتِ لعذرٍ أو غيرِه، وخافَ خروجَ الوقتِ في الصَّلاةِ إنْ طوَّلها أنَّه يخفِّفُها حتَّى يدركَها كلَّها في الوقتِ.

وأمَّا قولُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه لـمَّا طوَّلَ في صلاةِ الفجرِ وقرأَ بالبقرةِ، فقيل له: كادتِ الشَّمسُ أنْ تطلُعَ، فقال: لوْ طلَعَتْ لم تجدْنا غافلين[1]، فإنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه لم يتعمَّدِ التَّأخيرَ إلى طلوعِ الشَّمسِ، ولا أنْ يمدَّها ويُطيلَها حتَّى تطلُعَ الشَّمسُ؛ لأنَّه دخلَ فيها بغَلَسٍ وأطالَ القراءةَ، وربَّما كان قد استغرقَ في تلاوتِه، فلو طلَعَتِ الشَّمسُ حينئذٍ لم يضرَّه؛ لأنَّه لم يكن متعمِّداً لذلك، وهذا يدلُّ على أنَّه كان يرى صحَّةَ الصَّلاةِ لِمَنْ طلَعتْ عليه الشَّمسُ وهو في صلاتِه، كما أمرَ النَّبيُّ ﷺ مَنْ طلَعت عليه الشَّمسُ وقد صلَّى ركعةً مِنَ الفجرِ أنْ يُضيفَ إليها أخرى[2].

وفي حديثِ معاذٍ: دليلٌ على أنَّ مَنْ رأى رؤيا تسرُّه فإنَّه يقصُّها على أصحابِه وإخوانِه المحبِّين له، ولا سيَّما إنْ تضمَّنَتْ رؤياه بشارةً لهم وتعليماً لما ينفعُهم،

---

(١) قراءة أبي بكر رضي الله عنه سورة البقرة في صلاة الصبح، رواها:

١ ـ أنس رضي الله عنه، من وجهين:

الزهري: عند الشافعي في «اختلاف مالك» (الأم ٨/ ٦٢٩) ومن طريقه: البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٣٨٩). ونحوه عند عبد الرزاق (٢٧١١) وابن أبي شيبة (٣٥٦٥).

وخالفه قتادة؛ فذكر أنه قرأ بآل عمران: عند عبد الرزاق (٢٧١٢) والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٨١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣٧٩).

٢ـ عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي: عند الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (١/ ١٨٢).

٣ ـ عروة بن الزبير: عند الإمام مالك في «الموطأ» (١٧٩)، وعنه الشافعي في «كتاب اختلاف مالك والشافعي» (الأم ٨/ ٥٦٦) و(الأم (٨/ ٦٢٨)، ومن طريقه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٣٨٩). وعند عبد الرزاق (٢٧١٣).

(٢) كما روى الإمام أحمد في المسند (١٠٣٣٩) بلفظ: «من صلى من صلاة الصبح ركعة قبل أن تطلع الشمس ثم طلعت فليصل إليها أخرى». من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ إذا صلَّى الفجرَ يقولُ لأصحابِه: «مَنْ رأى منكم اللَّيلةَ رؤيا؟»[١].

وفيه أيضاً: أنَّ مَنِ استثقلَ نومُه في تهجُّدِه باللَّيلِ حتَّى رأى رؤيا تسرُّه، فإنَّ في ذلك بشرى له.

وفي «مراسيل الحسن»: «إذا نامَ العبدُ وهو ساجدٌ باهى اللهُ به الملائكةَ يقولُ: يا ملائكتي! انظروا إلى عبدِي جسدُه في طاعتي وروحُه عندي»[٢].

وفيه: دلالةٌ على شرَفِ النَّبيِّ ﷺ وتفضيلِه بتعليمِه ما في السماء والأرضِ، وتجلِّي ذلك له مما يختصِمُ فيه الملائكةُ في السَّماءِ وغيرِ ذلك؛ كما أُرِيَ إبراهيمُ ملكوتَ السَّماواتِ والأرضِ[٣].

وقد وردَ في غيرِ حديثٍ مرفوعاً وموقوفاً[٤]: أنَّه ﷺ أُعطِيَ عِلْمَ كلِّ شيءٍ خلا

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٢٧٥)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) روي عن الحسن من وجوه:

١ ـ أصحها ما رواه سلام بن مسكين عن الحسن قوله. عند ابن أبي شيبة (٣٦٧٤٩) وأحمد في «الزهد» (١٦٠٦) والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٩٩).

٢ ـ ورواه عباد بن راشد عنه مرفوعاً. أشار إليه الدارقطني في «العلل» (١٥٥٢).

٣ ـ وحزم بن أبي حزم عنه مرسلاً. أشار إليه الدارقطني في «العلل» (١٥٥٢).

٤ ـ ومبارك بن فضالة وعنه ابن المبارك في «الزهد» (١٢١٣) ومن طريقه المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢٩٨) مرسلاً. وخالفه: حجاج بن نصير فرواه عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً، أخرجه ابن سمعون في «أماليه» (٥٩)، وابن شاهين في «الناسخ والمنسوخ» (١٩٥). وهو منقطع.

وقد ورد نحوه من حديث أنس رضي الله عنه مرفوعاً: أخرجه البيهقي في «الخلافيات» (٣٨٩)، والآجري في «فضل قيام الليل» (٢٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٢٩٢).

قال البيهقي: «ليس هذا بالقوي».

(٣) الآية الكريمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

(٤) مرفوعاً عند الإمام أحمد (٥٥٧٩) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه: «أوتيت مفاتيح =

مفاتيحَ الغيبِ الخمس الَّتي اختَصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بعلمِها، وهي المذكورةُ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] الآيةَ.

وأمَّا وصفُ النَّبيِّ ﷺ لربِّه عزَّ وجلَّ بما وصفَه به، فكلُّ ما وصَفَ به النَّبيُّ ﷺ ربَّه عزَّ وجلَّ فهو حقٌّ وصِدْقٌ يجبُ الإيمانُ والتَّصديقُ به، كما وصَفَ اللهُ عزَّ وجلَّ به نفسَه معَ نفيِ التَّمثيلِ عنه، ومَنْ أشكلَ عليه فهمُ شيءٍ مِنْ ذلك واشتبَهَ عليه، فليقُلْ كما مدَحَ اللهُ تعالى به الرَّاسخينَ في العلمِ، وأخبرَ عنهم أنَّهم يقولون عند المتشابِه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وكما قال النَّبيُّ ﷺ في القرآن: «وما جهِلْتُمْ منه فكِلُوه إلى عالِمِه». خرَّجَه الإمامُ أحمدُ والنَّسائيُّ وغيرُهما[١]، ولا يتكلَّفُ ما لا عِلْمَ له به، فإنَّه يُخشى عليه مِنْ ذلك الهلَكَةُ.

سمِعَ ابنُ عبَّاسٍ يوماً مَنْ يروي عنِ النَّبيِّ ﷺ شيئاً مِنْ هذه الأحاديثِ[٢]، فانتفضَ رجلٌ ـ استنكاراً لذلك ـ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: ما فَرَقُ[٣] هؤلاء؟ يجدون ـ

= كل شيء إلا الخمس...». وموقوفاً عند الإمام أحمد (٣٦٥٩) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولفظه: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غيرَ خمس ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾. و(٤١٦٧) و(٤٢٥٣).

(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٣٦٧)، وعنه الإمام أحمد في «المسند» (٢٧٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. ولم أجده عند النسائي.

(٢) وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند عبد الرزاق في باب صفة أهل النار (٢٠٨٩٣). وفيه «... فلا تمتلئ حتى يضع رجله ـ أو قال: قدمه ـ فيها، فتقول: قط، قط، قط». وليس هو حديث «إن الله خلق آدم على صورته» كما ظنه بعضهم.

(٣) في حاشية (ش): «ما بال» وهي موافقة لرواية ابن أبي عاصم، وفي «مصنف عبد الرزاق»: «فرق من».

رقَّةً[١] ـ عند مُحْكَمِه، ويَهْلِكون عند مُتَشابِهه! خرَّجَه عبدُ الرَّزَّاقِ في «كتابِه» عن مَعْمَرٍ، عن ابنِ طاوسٍ، عن أبيه، عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما[٢].

فكلَّما سمِعَ المؤمنون شيئاً مِنْ هذا الكلامِ قالوا: هذا ما أخبرَنا اللهُ به ورسولُه، وصدقَ اللهُ ورسولُه، وما زادَهم إلَّا إيماناً وتسليماً.

وفيه: دلالةٌ على أنَّ الملأَ الأعلى وهم الملائكةُ أو المقرَّبون منهم يختصِمون فيما بينهم، ويتراجَعون القولَ في الأعمالِ الَّتي تقرِّبُ بني آدمَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وتكفِّرُ بها عنهم خطاياهم، وقد أخبرَ اللهُ عنهم بأنَّهم يستغفرون للَّذين آمنوا ويَدْعون لهم[٣].

---

(١) صواب العبارة كما في «المصنف»: «يَجِدُّون عند محكمه» أي يجتهدون في فهم محكم القرآن ويجتهدون في العمل به. أما كلمة (رِقَّة) فليست من كلام ابن عباس رضي الله عنهما وليست في المصنف، وإنما هي مدرجة ممن قرأ قبلها: (يَجِدُون) تفسيراً منه لما يجدونه!.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٨٩٥) وفي «تفسيره» (٢٩٦٠). ومدار هذا الأثر على معمر، وهو عند: ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٩٠٥٧)، ولفظه: «عن ابن عباس أنه ذكر ما يلقى الخوارج عند القرآن، فقال: يؤمنون عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه». وابن أبي عاصم في «السنة» (٤٨٥)، والطبري في «تفسيره» (٥/ ٢١٤) والهروي في «ذم الكلام وأهله» (٢٠٠) والآجري في «الشريعة» (٤٥).

(٣) كتب أحدهم في حاشية (ف): [اختصامهم: إما عبارة عن تبادرهم إلى ثَبْت تلك الأعمال والصعود بها إلى السماء، وإما عبارة عن تقاولهم في فضلها وشرفها، وإما عن اغتباطِهم الناسَ بتلك الفضائل لاختصاصهم بها. خلخالي رحمه الله]. والخلخالي: لعله محمد بن مظفر، شمس الدين الخطيبي، المتوفى قريب (سنة ٧٤٥هـ) له «شرح المصابيح» واسمه «المفاتيح في حل المصابيح» المترجم في «الدرر الكامنة» لابن حجر (٤/ ٢٦٠). وخلط الزركلي بينه وبين حسين الحسيني، المتوفى سنة (١٠١٤هـ).

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً نادى: يا جبريلُ! إنِّي أحبُّ فلاناً، فأحبَّه فيحبُّه جبريلُ، ثمَّ يُنادِي في السَّماءِ: إنَّ اللهَ يحِبُّ فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّه أهلُ السَّماءِ، ثمَّ يُوضَعُ له القَبولُ في الأرضِ»[1].

وقال أبو هريرة: إذا ماتَ ابنُ آدمَ قال النَّاسُ: ما خلَّفَ؟ وقالت الملائكةُ: ما قدَّمَ؟[2].

فالملائكةُ يسألون عن أعمالِ بني آدمَ، ولهم اعتناءٌ بذلك واهتمامٌ به.

وبقِيَ الكلامُ على المقصودِ مِنَ الحديثِ، وهو ذكرُ الكفَّاراتِ والدَّرجاتِ والدَّعواتِ، ونعقِدُ لكلِّ واحدةٍ منها فَصْلاً مُفْرداً.

* * *

(١) أخرجه البخاري في مواضع منها (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧). وما هنا أقرب إلى لفظه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه بنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٩٩٢) من حديث أبي هريرة يبلغ به.

الفصلُ الأوَّلُ
في ذكرِ الكفَّاراتِ

وهي: إسباغُ الوضوءِ في الكريهاتِ، ونَقْلُ الأقدامِ إلى الجمُعاتِ والجَماعاتِ، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصَّلواتِ، وسمِّيَتْ هذه كفَّاراتٍ؛ لأنَّها تكفِّرُ الخطايا والسَّيِّئاتِ، ولذلك جاء في بعضِ الرِّواياتِ: «مَنْ فعلَ ذلك عاش بخيرٍ ومات بخيرٍ، وكان مِنْ خطيئتِه كيومِ ولدته أمُّهُ»(١).

وهذه الخِصالُ المذكورةُ الأغلبُ عليها: تكفيرُ السَّيِّئاتِ، ويحصُلُ بها أيضاً رفعُ الدَّرجاتِ؛ كما في «صحيحِ مسلمٍ» عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحو اللهُ به الخطايا، ويرفَعُ به الدَّرجاتِ؟»، قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قال: «إسْباغُ الوُضوءِ على المكارِهِ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ، فذلكم الرِّباطُ، فذلكم الرِّباطُ»(٢).

وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النَّبيِّ ﷺ مِنْ وجوهٍ متعدِّدةٍ.

فهذه ثلاثةُ أسبابٍ تكفَّرُ بها الذُّنوبُ:

أحدُها: الوضوءُ.

وقد دلَّ القرآنُ على تكفيرِه الذُّنوبَ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾، إلى قولِه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] الآياتِ.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥١).

فقولُه تعالى: «لِيطهِّرَكم» يشملُ طهارةَ ظاهرِ البدنِ بالماءِ، وطهارةَ الباطنِ مِنَ الذُّنوبِ والخطايا.

وإتمامُ النِّعمةِ إنَّما يحصُلُ بمغفرةِ الخطايا[١] وتكفيرِها، كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [الفتح: ٢].

وقد استنبطَ هذا المعنى محمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظِيُّ[٢]، ويشهَدُ له الحديثُ الَّذي خرَّجه التِّرْمِذِيُّ وغيرُه عن معاذٍ: أنَّ النَّبيَّ ﷺ سمِعَ رجلاً يدعو يقولُ: أسألُكَ تمامَ النِّعمةِ، فقال له: «أتدري ما تمامُ النِّعمةِ؟»، قال: دعوةٌ دعوتُ بها أرجو بها الخيرَ، فقال النَّبيُّ ﷺ: «إنَّ تمامَ النِّعمةِ النَّجاةُ مِنَ النَّارِ ودخولُ الجنَّةِ»[٣]. فلا تتمُّ نعمةُ اللهِ على عبدِه إلَّا بتكفيرِ سيِّئاتِه.

وقد تكاثرَتِ النُّصوصُ عن النَّبيِّ ﷺ بتكفيرِ الخطايا بالوضوءِ؛ كما في «صحيحِ مسلمٍ» عن عثمانَ رضي الله عنه أنَّه توضَّأَ ثمَّ قال: رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ توضَّأَ مثلَ وُضوئِي هذا، ثمَّ قال: «مَنْ توضَّأَ هكذا غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِه، وكانت صلاتُه ومشيُه إلى المسجدِ نافلةً»[٤].

---

(١) في (ش): «الذنوب» وفي حاشيتها: «الخطايا».

(٢) نقله البغوي في «تفسيره» (٣/ ٢٥). قال: إتمام النعمة: تكفير الخطايا بالوضوء في تفسير آية الوضوء من سورة المائدة. وذكره المصنف ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص ٤٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٢٧) إلا أن فيه: «فإن من تمام النعمة دخول الجنة، والفوز من النار»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن»، وهو عند الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٠١٧)، والطبراني في «الكبير» (٩٨).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٩).

وفيه أيضاً: عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوُضوءَ خرَجَتْ خطاياه مِنْ جسدِه حتَّى تخرُجَ مِنْ تحتِ أظفارِه»(١).

وفيه أيضاً: عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا توضَّأَ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ فغسلَ وجهَه، خرَجَ مِنْ وجهِه كلُّ خطيئةٍ نظرَ إليها بعينيه مع الماءِ أو مع آخرِ قَطْرِ الماءِ، فإذا غسَلَ يديه خرَجَ مِنْ يديه كلُّ خطيئةٍ كان بطشَتْها يداه مع الماءِ أو مع آخر قَطْرِ الماءِ، فإذا غسلَ رجليه خرَجَتْ كلُّ خطيئةٍ مشَتْها رجلاه مع الماءِ أو مع آخر قَطْرِ الماءِ، حتَّى يخرُجَ نقيّاً مِنَ الذُّنوبِ»(٢).

وفيه أيضاً: عن عمرو بنِ عَبَسَةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما منكم مِنْ رجلٍ يُقَرِّبُ وَضوءَه فيتمضمَضُ ويستنشِقُ فينتثِرُ إلَّا خرَجت خطايا وجهِه وفيهِ وخياشيمِه، ثمَّ إذا غسلَ وجهَه كما أمرَه اللهُ إلَّا خرَجت خطايا وجهِه مِنْ أطرافِ لحيتِه معَ الماءِ، ثمَّ يغسِلُ يديه إلى المِرْفَقين إلَّا خرَجتْ خطايا يديه مِنْ أناملِه مع الماءِ، ثمَّ يمسَحُ رأسَه إلَّا خرَجتْ خطايا رأسِه مِنْ أطرافِ شعرِه مع الماء، ثمَّ يغسِلُ قدميه إلى الكعبين إلَّا خرَجَتْ خطايا رجليه مِنْ أناملِه مع الماءِ، فإنْ هو قامَ فصلَّى فحمِدَ اللهَ وأثنى عليه ومجَّدَه بالَّذي هو أهل له، وفرَّغَ قلبَه للهِ إلَّا انصرَفَ مِنْ خطيئتِه كهيئتِه يومَ ولدته أمُّهُ»(٣).

وفي «الموطَّأِ» و«مسندِ الإمامِ أحمدَ» و«سننِ النَّسائيِّ» و«ابنِ ماجَهْ» عن الصُّنَابِحِيِّ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا توضَّأَ العبدُ المؤمنُ فمضمضَ خرجَتِ الخطايا مِنْ فيه، فإذا استنثرَ خرجَتِ الخطايا مِنْ أنفِه، فإذا غسلَ وجهَه خرَجَتِ الخطايا مِنْ وجهِه حتَّى تخرُجَ مِنْ تحتِ أشفارِ عينيه، فإذا غسَلَ يديه خرَجَتِ الخطايا مِنْ يديه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٤).

(٣) أخرجه مسلم (٨٣٢). إلا أن عنده: «خَرَّت» بدلًا من «خرجت» في أربعة مواضع. وعنده: «بالذي هو له أهل». وفي (ت) و(ف): «بالذي هو أهله».

حتَّى تخرُجَ مِنْ تحت أظفارِ يديه، فإذا مسَحَ برأسِه خرَجَتِ الخطايا مِنْ رأسِه حتَّى تخرُجَ مِنْ أذنيه، فإذا غسَلَ رجليه خرَجَتِ الخطايا مِنْ رجليه حتَّى تخرُجَ مِنْ تحت أظفارِ رجليه، ثمَّ كانَ مشيُه إلى المسجدِ وصلاتُه نافلةً»[١].

وفي «المسندِ» عن أبي أُمامةَ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ما مِنْ مسلمٍ يتوضَّأُ فيغسِلُ يديه ويمضمضُ فاه ويتوضَّأُ كما أمرَ اللهُ إلَّا حطَّ اللهُ عنه يومئذٍ ما نطَقَ به فمُه، وما مسَّ بيديه[٢]، وما مشى إليه، حتَّى إنَّ الخطايا تَحادَرُ مِنْ أطرافِه، ثمَّ إذا هو مشى إلى المسجد فرِجْلٌ تَكْتُبُ حسنةً، وأخرى تَمْحا[٣] سيِّئةً»[٤].

وفيه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ قامَ إلى وُضوئِه يريدُ الصَّلاةَ، ثمَّ غسلَ كفَّيه نزلتْ خطيئتُه مِنْ كفَّيهِ مع أوَّلِ قطرةٍ، فإذا مضمضَ واستنشقَ واستنثرَ نزلت خطيئتُه مِنْ لسانِه وشفتيه مع أوَّلِ قطرةٍ، فإذا غسلَ وجهَه نزلتْ خطيئتُه مِنْ سمعِه وبصرِه مع أوَّلِ قطرةٍ، فإذا غسلَ يديه إلى المِرْفَقين ورجليه إلى الكعبين، سَلِمَ مِنْ كلِّ ذنبٍ هو له ومِنْ كلِّ[٥] خطيئةٍ كهيئتِه يومَ ولدته أمُّهُ، فإذا قامَ إلى الصَّلاةِ رفعَ اللهُ بها درجتَه، وإنْ قعدَ قعدَ سالماً»[٦].

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٦٦)، والإمام أحمد في «المسند» (١٩٠٦٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧) واللفظ له، وابن ماجه (٢٨٢).

(٢) في (ش): «بيده».

(٣) في (ش): «تمحو».

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٩٩٥). وهو ليس في «مسند أحمد» ولم يذكره الحافظ ابن حجر في «إتحاف المهرة» ولا في «إطراف المسند المعتلي».

(٥) في (ش): «وكان من كل».

(٦) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢٢٢٦٧).

وفي المعنى أحاديثُ أخَرُ، وفيما ذكرناه كفايةٌ.

وقد وردَتِ النُّصوصُ أيضاً بحصولِ الثَّوابِ على الوضوءِ، وهذا زيادةٌ على تكفيرِ السَّيِّئاتِ به، ففي «صحيحِ مسلمٍ» عن عمرَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ قال: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له[1]، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، فُتِحَتْ له أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةِ يدخلُ مِنْ أيِّها شاءَ»[2].

وفيه أيضاً: عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ: «تبلُغُ الحِلْيَةُ مِنَ المؤمنِ حيثُ يبلُغُ الوضوءُ»[3].

وفيه أيضاً: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أنتم الغُرُّ المحجَّلون مِنْ إسباغِ الوُضوءِ»[4].

وخرَّجَه البخاريُّ ولفظُه: «إنَّ أمَّتِي يُدْعَون يومَ القيامةِ غُرًّا محجَّلين مِنْ آثار الوضوءِ»[5].

واعلمْ أنَّ حديثَ معاذِ بنِ جبلٍ في المنامِ إنَّما فيه ذكرُ إسباغِ الوضوءِ على الكريهاتِ، وكذا في حديثِ أبي هريرةَ المبدوءِ بذكرِه في هذا الفصلِ، فهاهنا أمران:

أحدُهما: إسباغُ الوضوءِ، وهو إتمامُه وإبلاغُه مواضِعَه الشَّرعيَّةَ؛ كالثَّوبِ السَّابغِ الْمُغَطِّي للبدنِ كلِّه.

وفي «مسندِ البزَّارِ» عن عثمانَ مرفوعاً: «مَنْ توضَّأَ فأسبغَ الوضوءَ غُفِرَ له ما

---

(١) «وحده لا شريك له» ليست في (ش) وهي في إحدى روايتي مسلم، أدرجهما المصنف رحمه الله.

(٢) أخرجه مسلم من حديث عقبة بن عامر عن سيدنا عمر رضي الله عنهما (٢٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٠).

(٤) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (٢٤٦).

(٥) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (١٣٦).

تقدَّمَ مِنْ ذنبِه وما تأخَّرَ»[١]. وإسنادُه لا بأسَ به. وخرَّجه ابنُ أبي عاصمٍ منْ وجهٍ آخرَ عن عثمان[٢].

وخرَّجَ النَّسائيُّ وابنُ ماجهْ مِنْ حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إسباغُ الوضوءِ شطرُ الإيمانِ»[٣].

وخرَّجه مسلمٌ ولفظُه: «الطُّهورُ شَطْرُ الإيمانِ»[٤].

وثانيهما: أن يكون إسباغُه على الكريهاتِ.

والمرادُ أنْ يكونَ على حالةٍ تكرَهُ النَّفسُ فيها الوضوءَ، وقد فُسِّرَ بحالِ نزولِ المصائبِ، فإنَّ النَّفسَ حينئذٍ تطلُبُ الجَزَعَ، فالاشتغالُ عنه بالصَّبرِ والمبادرةِ إلى الوضوءِ والصَّلاةِ مِنْ علامةِ الإيمانِ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣].

والوضوءُ مفتاحُ الصَّلاةِ، وقد يُطْفَأُ به حرارةُ القلبِ النَّاشئةُ عن ألمِ المصائبِ، كما يؤمَرُ مَنْ غضِبَ بإطفاءِ غضبِه بالوضوءِ[٥].

وفُسِّرَتِ «الكريهاتُ» بالبَرْدِ الشَّديدِ، ويشهدُ له أنَّ في بعض رواياتِ حديثِ

---

(١) أخرجه البزار (٤٢٢) بلفظ قريب منه.

(٢) «الآحاد والمثاني» لابن أبي عاصم (١٥٠).

(٣) أخرجه النسائي (٢٤٥٦)، وابن ماجه (٢٨٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٥) أخرج الإمام أحمد في «المسند» (١٧٩٨٥) من حديث عطية السعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ».

معاذٍ: «إسباغُ الوضوءِ على السَّبَراتِ»، والسَّبْرةُ: شدَّةُ البَرْدِ، ولا ريبَ أنَّ إسباغَ الوضوءِ في شدَّةِ البَرْدِ يشُقُّ على النَّفسِ وتتألَّمُ به، وكلُّ ما يؤلمُ النفس[١] ويشُقُّ عليها فإنَّه كفَّارةٌ للذُّنوبِ، وإنْ لمْ يكن للإنسانِ فيه صُنْعٌ ولا تسبُّبٌ كالمرَضِ ونحوه[٢]، كما دلَّتِ النُّصوصُ الكثيرةُ على ذلك.

وأمَّا إنْ كان ناشئاً عن فعلٍ هو طاعةٌ للهِ فإنَّه يُكتَبُ لصاحبِه به أجرٌ وتُرْفَعُ به درجاتُه؛ كالألمِ الحاصلِ للمجاهدِ في سبيلِ الله تعالى، قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآيةَ، وكذلك الجوعُ والعطَشُ الَّذي يحصُلُ للصَّائمِ، فهكذا التَّألُّمُ بإسباغِ الوضوءِ في البَرْدِ.

ويجبُ الصَّبرُ على الألمِ بذلك، فإنْ حصَلَ به الرِّضا فذلك مقامُ خواصِّ العارفين المحبِّين، وينشأُ الرِّضا بذلكَ عن[٣] ملاحظةِ أمورٍ:

أحدُها: تذكُّرُ فضلِ الوضوءِ مِنْ حَطِّه للخطايا، ورفعِه للدَّرجاتِ، وحصولِ الغُرَّةِ والتَّحْجيلِ به، وبلوغِ الحِلْيَةِ في الجنَّةِ إلى حيثُ يبلُغُ.

وهذا كما انكسَرَ ظفرُ بعضِ الصَّالحاتِ مِنَ السَّلَفِ مِنْ عَثْرَةٍ عثرَتْها فضحكتْ وقالتْ: أنساني حلاوةُ ثوابِه مرارةَ وجَعِه[٤].

---

١) في (ت) و(ف): «النفوس».

٢) في (ت) و(ف): «وغيره».

(٣) في (ت) و(ف): «على».

(٤) واسمها: موفّقة أو موافقة رحمها الله تعالى.

والخبر في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٤/ ١٩١) في ذكر المصطفيات من عابدات الموصل.

وقال بعضُ العارفين: مَنْ لمْ يعرِفْ ثوابَ الأعمالِ ثقُلَتْ عليه في جميعِ الأحوالِ[١].

الثَّاني: تذكُّرُ ما أعدَّهُ اللهُ عزَّ وجلَّ لمَنْ عصاهُ مِنَ العذابِ بالبَرْدِ والزَّمْهَرِيرِ، فإنَّ شدَّةَ بَرْدِ الدُّنيا يذكِّرُ بزَمْهَرِيرِ جهنَّمَ.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ أشدَّ ما تجدونَ مِنَ الْبَرْدِ مِنْ زَمْهَرِيرِ جهنَّمَ»[٢].

فملاحظةُ هذا الألمِ الموعود[٣] يهوِّنُ الإحساسَ بألمِ بَرْدِ الماءِ؛ كما رُوِيَ عن زُبَيْدٍ اليَامِيِّ أنَّه قامَ ليلةً للتَّهجُّدِ وكان البردُ شديداً[٤]، فلمَّا أدخلَ يدَه في الإناءِ وجَدَ شدَّةَ بَرْدِه، فذكر زَمْهَرِيرَ جهنَّمَ فلمْ يشعُرْ ببَرْدِ الماءِ بعد ذلك، وبقيَتْ يدُه في الماء حتَّى أصبحَ، فقالت له جاريَتُه: ما لَكَ لمْ تصَلِّ اللَّيلةَ كما كنتَ تصلِّي؟ فقال: إنِّي لمَّا وجدتُ شدَّةَ بَرْدِ الماءِ ذكرتُ زَمْهَرِير جهنَّمَ، فما شعرتُ به حتَّى أصبحتُ، فلا تُخبِري بهذا أحداً ما دُمتُ حيًّا[٥].

---

(١) وهو أبو عبد الله البَرَاثي رحمه الله تعالى، محمد بن خالد بن يزيد.
والخبر رواه ابن أبي الدنيا في «الزهد» (١٣٩)، وعنه: الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٢٣٩٦). ورواه أبو سعيد الأعرابي في «كتاب فيه معنى الزهد والمقالات وصفة الزاهدين» (ص ٦١)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٣٨). وأورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٨٩) في ذكر المصطفين من أهل بغداد.
ورواه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٤٩) من كلام بشر بن الحارث رحمه الله تعالى.

(٢) أخرج البخاري (٥٣٧) ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أصله، وهذا اللفظ في «مسند أحمد» (٧٧٢٢).

(٣) تصحفت في (ف) إلى: «الموجود».

(٤) في (ت) و(ف): «والبرد شديد».

(٥) أورده المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص: ٥٦٧)، وفي «التخويف من النار».
والخبر نقله ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٣/ ٩٩).

الثَّالثُ: ملاحظةُ جلالِ مَنْ أمرَ بالوضوءِ، ومطالعةُ عظمتِه وكبريائِه، وتذكُّرُ[١] التَّهيُّؤِ للقيامِ بين يديه ومناجاتِه في الصَّلاةِ، فذلك يهوِّنُ كلَّ ألمٍ ينالُ العبدَ في طلبِ مرضاتِه مِنْ بَرْدِ الماءِ وغيرِه، وربَّما لمْ يشعُرْ بألمِه[٢] بالكليَّةِ؛ كما قال بعضُ العارفين: بالمعرفةِ هانَتْ على العاملين العبادةُ[٣].

قال سعيدُ بنُ عامرٍ: بلغني أنَّ إبراهيمَ الخليلَ عليه السَّلامُ كانَ إذا توضَّأَ سُمِعَ لعظامه قَعْقَعَةٌ[٤].

وكان عليُّ بنُ الحسينِ إذا توضَّأَ اصفرَّ[٥]، فيُقال له: ما هذا الَّذي يعتريكَ عند الوضوءِ؟ فيقولُ: أتدرون بين يدي مَنْ أريدُ أنْ أقومَ؟![٦]

وكان منصورُ بنُ زاذانَ إذا فرَغَ مِن وضوئِه يبكي حتَّى يرتفعَ صوتُه، فقيل له: ما شأنُكَ؟ فقال: وأيُّ شيءٍ أعظمُ مِنْ شأني أنِّي أريدُ أنْ أقومَ بين يدي مَنْ لا تأخذُه سِنةٌ ولا نومٌ، فلعلَّهُ يُعرِضُ[٧] عنِّي[٨].

وكان عطاءٌ السَّلِيميُّ إذا فرَغَ مِنْ وضوئِه ارتعدَ وانتفضَ وبكى بكاءً شديداً،

---

(١) في (ش): «وذكر».

(٢) في (ش): «بالماء».

(٣) رواه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (٣٤٤٠) من كلام أبي عبد الله البراثي رحمه الله تعالى. ونقله ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٣٨٩).

(٤) لم أجده عند غير المُصَنِّف.

(٥) في (ف) «اصفر لونه»، وكتب فوقها (حـ) وكأنها علامة ضرب. وليست في «تاريخ دمشق».

(٦) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٣٧٨).

(٧) في (ش): «يرضى».

(٨) أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (٢/ ٧).

فقيل له في ذلك، فقال: إنِّي أريدُ أنْ أتقدَّمَ إلى أمرٍ عظيمٍ، إنِّي أريدُ أنْ أقومَ بين يدي اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

الرَّابعُ: استحضارُ اطِّلاعِ اللهِ عز وجل على عبدِه في حالِ العملِ له، وتحمُّلِ المشاقِّ لأجلِه، فمَنْ تيقَّنَ أنَّ البلاءَ بعينِ مَنْ يحبُّه هان عليه الألمُ؛ كما أشارَ اللهُ تعالى إلى ذلك بقولِه عز وجل لنبيِّه ﷺ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقولِه تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]. وقال ﷺ: «اعبُدِ اللهِ كأنَّكَ تراهُ، فإنْ لمْ تكن تراه فإنَّه يراكَ»[٢].

قال أبو سليمانَ: قرأتُ في بعضِ الكتبِ: يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: «بعيني ما تحمَّلَ المتحمِّلون مِنْ أجلي، وكابدَ المُكابدون في طلب مَرْضاتي، فكيفَ بهم وقد صاروا في جِواري، وتَبَحْبَحُوا[٣] في رياضِ خُلْدِي، فهنالك فليُبشِرِ الْمُصَفُّون لله أعمالَهمْ بالمنظرِ العَجيبِ مِنَ الحبيبِ القريبِ، أيُرَون[٤] أنِّي أضيِّعُ لهم عملاً؟! فكيف وأنا أجودُ على المولِّين عنِّي، فكيف بالمـُقبلين إليَّ؟!»[٥].

فإسباغُ الوضوءِ في البَرْدِ لا سيَّما في اللَّيلِ يطَّلِعُ اللهُ عليه، ويرضى به، ويُباهي به الملائكةَ، فاستحضارُ ذلكَ يهوِّنُ ألم برد الماء[٦].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ٢١٨).

(٢) أخرجه هذا اللفظ أبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٠٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه. وحديث جبريل من رواية عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما معروف في تسمية تلك العبادة إحساناً.

(٣) المثبت من (ش)، «والحلية». ومعناه: تمكنوا في المقام والحلول. وفي (ت) و(ف): «تبجحوا. ومعناه: فرحوا». وكلا المعنيين يستقيم هنا.

(٤) في (ش): «أترونني».

(٥) في «الحلية»: «عليّ». والخبر في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٥٥).

(٦) في (ت) و(ف): «ألمه».

وفي «المسندِ» و«صحيحِ ابنِ حبَّانَ» عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «رجلانِ مِنْ أمَّتي يقومُ أحدُهما من اللَّيلِ يعالِجُ نفسَه إلى الطُّهورِ، وعليه عُقَدٌ، فيتوضأ، فإذا وضَّأ يدَيه انحلَّتْ عُقدة، وإذا وضَّأ وجهَه انحلَّتْ عُقْدة، وإذا مسح برأسِه[1] انحلَّتْ عُقدة، وإذا وضَّأ رِجلَيْه انحلَّت عُقدة، فيقولُ الرب عزَّ وجل للذين وراءَ الحجابِ: «انظُروا إلى عَبدي هذا يُعالِجُ نفسَه، ما سألَني عبدي هذا فهو له». وذكرَ بقيَّةَ الحديثِ[2].

وروى عَطِيَّةُ عن أبي سعيدٍ، عنِ النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللهَ يضحَكُ إلى ثلاثةِ نفَرٍ: رجل قام من جَوفِ اللَّيلِ فأحسنَ الطُّهورَ فصلَّى»[3]. وذكرَ الحديثَ.

كانَ بعضُ السَّلفِ له وِرْدٌ باللَّيلِ، فَفَتَر عنه، فهتَفَ به هاتفٌ:

بعينِ اللهِ في اللَّيلِ ... لَمَا يَصنعُ خُدَّامُهْ

إذا قاموا وحَثَّتْهم ... على الخِدمَةِ أحكامُهْ[4].

الخامسُ: الاستغراقُ في محبَّةِ مَنْ أمرَ بهذه الطَّاعةِ، وأنَّه يرضى بها ويحبُّها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فمَنِ امتلأَ قلبُه مِنْ محبَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ أحبَّ ما يحبُّه وإنْ شَقَّ على النَّفْسِ وتألَّمَتْ به، كما يقال: المحبَّةُ تهوِّنُ الأثقالَ.

---

(١) في (ش): «رأسه».

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١٧٤٥٨) و(١٧٧٩١)، وابن حبان (١٠٥٢) و(٢٥٥٥) ولكن لا بقية للحديث عندهما!

(٣) أخرجه البزار («كشف الأستار» (٧١٥) ومسند أبي سعيد مفقود من مسند البزار). وتتمته: «ورجل نام وهو ساجد، ورجل أحسبه كان في كتيبة فانهزمت، وهو على فرس جواد لو شاء أن يذهب لذهب».

(٤) لم أجد هذا الخبر عند غير المصنِّف.

وقالَ بعضُ السَّلفِ في مرضِه: أَحَبُّه إليَّ أَحَبُّه إليْه[١].

وكما قِيل:

فمـــا لجُـــرْحٍ إذا أرضَاكُـــمُ أَلَـــمُ[٢]

وكما قِيل أيضاً:

في حُبِّكُمْ يَهُونُ مـا قَـدْ أَلـقـى مَا يَسْعَدُ بالنَّعِيْمِ مَنْ لا يَشْقى[٣]

مَنْ خدَمَ مَنْ يُحِبُّ تلذَّذَ بشَقَائِه في خِدْمَتِه.

قالَ بعضُهم: القلبُ المحبُّ للهِ يُحِبُّ النَّصَبَ له[٤].

وقالَ عبدُ الصَّمدِ: أوجدَهمْ في عَذَابِه عُذُوبةً[٥].

---

(١) عزاه المصنف في «فتح الباري» (١/ ٦٤) وفي «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٧) إلى بعض التابعين. وأخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٨٠٤). من كلام عمران بن حصين رضي الله عنه جواباً لمُطرِّف بن عبد الله.

(٢) عجز بيت لأبي الطيب المتنبي، وصدره:

إن كان سَـــرَّكُمُ مـــا قـــال حاسِـــدُنا

(٣) ذكره ابن الجوزي في «مرافق الموافق في الوعظ» (ص ٧٦)، وفي «المدهش» (ص ١٥٨).

(٤) نسبه أبو طالب المكي في «قوت القلوب» (٢/ ٩٢) إلى عيسى عليه السلام.

وقرأه ثور بن يزيد في «التوراة»، كما في «المحبة لله سبحانه» لابن الجنيد (٢٤)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٩٣).

وروي من كلام مالك بن دينار، كما في «المحبة» لابن الجنيد (٢٥)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٢/ ٣٥٩).

(٥) ذكره المصنف في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٧) وعزاه لبعضهم. وعبد الصمد هو عبد الصمد بن عمر بن محمد بن إسحاق، أبو القاسم الواعظ، المتوفى (سنة ٣٩٧هـ). وأورد ابن الجوزي أخباره في «صفة الصفوة»، ومنها قوله هذا (١/ ٥٥٤).

إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ مِنْ علاماتِ المحبِّين، كما في كتابِ «الزُّهدِ» للإمامِ أحمدَ عن عطاءِ بنِ يسارٍ قالَ: قالَ موسى عليه السَّلامُ: «يا ربِّ مَنْ أهلُكَ الذينَ هُم أهلُك، الذينَ تُظلُّهم في ظِلِّ عَرْشِكَ؟ قالَ: همُ البَرِيَّةُ أيديهم، الطَّاهرةُ قلوبُهم، الذين يتحابُّون بجلالي، الَّذينَ إذا ذُكِرْتُ ذُكِروا بي، وإذا ذُكِروا ذُكِرتُ بذكرِهم، الذين يُسبغون الوضوءَ في المكارِه، وينيبون إلى ذِكري كما تُنِيْبُ النُّسور إلى أوكارها، ويَكْلَفُون بمحبَّتي[1] كما يَكْلَفُ الصَّبيُّ بحبِّ الناسِ، ويَغْضَبُونَ لمحارمِي إذا استُحِلَّتْ كما يغضَبُ النَّمِرُ إذا حَرِب»[2].

وقد يَخْرِقُ الله العادةَ لبعضِ المحبِّينَ له؛ فلا يَجِدُ ألمَ بَرْدِ الماءِ كما كانَ بعضُ السَّلفِ قد دعا اللهَ أنْ يهوِّنَ عليه الطُّهورَ في الشِّتاءِ، فكانَ يُؤتى بالماءِ وله بُخار[3].

---

(١) في (ش): «يحبي».

(٢) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٨٩). وابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٣٧)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١/ ١٤١) من حديث عطاء.

وأخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٠٧٥)، وذكر له ابن عساكر طرقاً متعددة عن غيره من كلام موسى عليه السلام.

وأخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٨٦٠) من حديث هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً بنحوه، وعنه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٣)، ولفظه في آخره: «غضب النمر لنفسه، فإن النمر إذا غضب لم يبال أقلَّ الناس أم كثروا».

قال الغزالي في «الإحياء» (في كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا) (٦/ ٧٩): «وأما النمر فإنه لا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه».

قال ابن السكيت في «إصلاح المنطق» (ص: ٣٥): «والحَرَب: مصدر حَرِب يحرَب حَرَباً: إذا اشتد غضبه». وفي (ش) و(ف): «جُرِبَ»، والمثبت من (ت) دون الضبط، فقد ضبط الحاء بالضم.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ١٠٥) عن قتادة قال: سأل عامر بن عبد الله ربه أن يهون عليه الطهور... وهو في «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٢٦/ ٢٢).

وربما سُلِبَ بعضُهم الإحساسَ في البردِ والحرِّ مطلقاً.

وكانَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضي الله عنه قدْ دعا له النَّبيُّ ﷺ أنْ يُذهبَ اللهُ عنه الحرَّ والبردَ، فكانَ يَلْبَسُ في الصَّيفِ لباسَ الشِّتاءِ، وفي الشِّتاءِ لباسَ الصَّيف، وقال النَّبيُّ ﷺ فيه: «إنه يُحِبُّ اللهَ ورَسولَه ويحبُّه اللهُ ورسولُه»[١].

ورأى أبو سليمانَ الدَّارانيُّ في طريقِ الحَجِّ في شِدةِ بردِ الشِّتاءِ شَيْخاً عليه أَخْلاقٌ رَثَّة[٢] وهو يَرْشَحُ عَرَقاً، فسألَه عن حالِه؟ فقال: إنما الحرُّ والبردُ خَلْقان للهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ أَمَرَهما أنْ يَغْشَياني أصاباني، وإنْ أَمَرهما أنْ يَتْرُكاني تركاني، وقال: أنا في هذه البَرِّيةِ منذُ ثلاثينَ سنةً يُلْبِسُني في البردِ فَيْحاً مِنْ مَحبَّته، ويُلْبِسُني في الصَّيفِ بَرداً مِنْ مَحَبَّته[٣].

وقيلَ لآخرَ وعليه خِرْقتانِ في بردٍ شديدٍ: لوِ استترتَ في موضعٍ يُكِنُّك مِنَ البردِ؟ فأنشدَ:

ويحسُنُ ظنِّي أَنَّني في فِنائِه ... وهلْ أحدٌ في كِنِّه يجدُ البردا[٤]

السَّبَبُ الثَّاني مِنْ مكفِّراتِ الذُّنوبِ: المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ وإلى الجُمُعاتِ، ولا سيَّما إنْ توضَّأَ الرَّجلُ في بيتِه، ثمَّ خرَجَ إلى المسجدِ لا يُريدُ بخروجِه إلَّا الصَّلاةَ فيه، كما في «الصَّحيحينِ» عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٧٨).

(٢) يقال ثوبٌ أخلاق: إذا كانت الخُلوقة فيه كله. ومعنى الخَلَق: البالي. كما في «القاموس المحيط» (خلق).

(٣) أخرجه ابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن» (٤٨).

(٤) أخرجه أبو عبد الرحمن السُّلمي في «طبقات الصوفية» (ص: ١٩٦)، ومن طريق ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٠/ ٣١) في قصةٍ جَرَتْ بين سَمْنون وشابٍّ في بيت المقدس رحمهما الله.

النَّبيِّ ﷺ قالَ: «صلاةُ الرَّجلِ في الجماعةِ تُضَعَّفُ على صَلاتِه في بيتِه وفي سُوقِه خمسةً وعشرين ضِعفاً، وذلك أنَّه إذا توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ خَرَجَ إلى المسجدِ ـ لا يُخرِجُه إلَّا الصَّلاةُ ـ لمْ يَخْطُ خَطْوةً إلَّا رُفِعَتْ له بها درجةٌ، وحُطَّ عنه بها خَطِيئةٌ، فإذا صَلَّى لمْ تزلِ الملائكةُ تُصلِّي عليه ما دامَ في مُصَلَّاه، اللَّهمَّ صلِّ عليه، اللَّهمَّ ارحمْه، ولا يزالُ أحدُكم في صلاةٍ ما انتظرَ الصَّلاةَ»(١).

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ تَطَهَّر في بيتِه، ثمَّ مَشى إلى بيتٍ مِنْ بيوتِ اللهِ؛ ليقضيَ فريضةً مِنْ فرائضِ اللهِ: كانتْ خَطْوتَاه إحداهما تحُطُّ خطيئةً، والأخرى ترفعُ درجةً»(٢).

وفي «الصَّحيحين» عن أبي هريرةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «كلُّ خطوةٍ يمشيها إلى الصَّلاةِ صدقةٌ»(٣).

وفي «المُسْندِ» و«صحيحِ ابنِ حبَّانَ»، عن عُقْبةَ بنِ عامرٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «إذا تَطَهَّرَ الرَّجلُ ثمَّ أتى المَسْجِدَ يَرْعى الصَّلاةَ: كَتَبَ له كاتباهُ بكلِّ خَطْوةٍ يَخْطُوها إلى المسجدِ عَشْرَ حسناتٍ»(٤).

وفيهما أيضاً عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ راحَ إلى مَسجدِ جماعةٍ فخطوتاه خَطْوةٌ تمحو سيِّئةً، وخَطْوةٌ تكْتُبُ حسنةً، ذاهِباً وراجِعاً»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٦٦٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٩١)، ومسلم (١٠٠٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٧٤٤٠) (١٧٤٥٦ ـ ١٧٤٦١)، وابن حبان (٢٠٤٥).

(٥) أخرجه الإمام أحمد (٦٥٩٩)، وابن حبان (٢٠٣٩).

وفي «سننِ أبي داودَ»، عن أبي أُمامةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ خرجَ مِنْ بيتِه مُتَطهِّراً إلى صلاةٍ مكتوبةٍ؛ فأجرُه كأجرِ الحاجِّ المُحرِمِ»(١).

وفيهِ أيضاً عن رجلٍ مِنَ الأنصارِ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ خرجَ إلى الصَّلاةِ لم يرفَعْ قَدَمَه اليُمْنى إلَّا كَتبَ اللهُ له بها حسنةً، ولمْ يَضَعْ قدمَهُ اليُسرى إلَّا حَطَّ اللهُ عنه بها خطيئةً، فليقرُبْ أو ليبعُدْ، فإنْ أتى المسجدَ فصلَّى في جماعةٍ غُفِرَ له»(٢).

والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جِدًّا، فالمشيُ إلى الجمُعاتِ له مزيدُ فَضْلٍ، لا سِيَّما إنْ كان بعدَ الاغتسالِ، كما في «السُّننِ» عن أَوْس بنِ أَوْسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ غَسَلَ يومَ الجمعةِ واغتَسَلَ، وبكَّرَ وابتكرَ، ومشى ولم يركَبْ، ودنا مِنَ الإمامِ، واستمعَ ولمْ يَلْغُ، كان له بكلِّ خَطوةٍ أجرُ سنةٍ صيامِها وقيامِها»(٣).

وكلَّما بَعُدَ المكانُ الذي يمشي منه إلى المسجدِ كانَ المشيُ منه أفضلَ لكثرةِ الخُطا.

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن جابرٍ قالَ: كانت دارُنا نائيةً من(٤) المسجدِ فأرَدْنا أنْ نبيعَ بيوتَنا فنقرُبَ مِنَ المسجدِ، فنهانا رسولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «إنَّ لكم بكلِّ خطوةٍ حسنةً»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٦٤).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٤٩)، والترمذي (٤٩٦) وقال: حسن، والنسائي (١٣٨١)، وابن ماجه (١٠٨٧).

(٤) في مطبوعة الصحيح: «عن». وفي حاشية (ت): «نائية أي بعيدة».

(٥) أخرجه مسلم (٦٦٤) وعنده: «.... بكل خطوة درجة».

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن أنسٍ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «يا بني سَلِمَة! ألا تحتسبونَ آثارَكم»(١).

وفي «الصَّحيحينِ» عن أبي موسى: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ أعظمَ النَّاسِ أجراً في الصَّلاةِ أبعدُهمْ إليها ممشىً فأبعدُهم»(٢).

ومعَ هذا، فنَفْسُ الدَّارِ القريبةِ مِنَ المسجدِ أفضلُ من الدار البعيدةِ عنه، لكنَّ المشيَ من الدارِ البعيدةِ أفضلُ، ففي «المُسْنَد» عن حُذيفةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «فضلُ الدَّارِ القريبةِ مِنَ المسجدِ على الدَّارِ الشَّاسِعَةِ؛ كفضلِ الغازي على القاعدِ». وإسنادُه منقطعٌ(٣).

والمشيُ إلى المسجدِ أفضلُ مِنَ الرُّكوبِ، كما تقدَّم في حديثِ أوسٍ في الجُمُعة، ولهذا جاءَ في حديثِ معاذ ذكرُ المشيِ على الأقدامِ(٤)، وكان النَّبيُّ ﷺ لا يخرُجُ إلى الصَّلاةِ إلَّا ماشِياً، حتَّى يومُ العيدِ يخرُجُ إلى المصلَّى ماشِياً(٥)، فإنَّ الآتيَ للمسجدِ زائرُ اللهِ، والزِّيارةُ على الأقدامِ أقربُ إلى الخضوعِ والتَّذلُّلِ، كما قيلَ:

لو جِئْتُكم زَائراً أسعى على بَصَري ... لَمْ أدِّ حقًّا وأيَّ الحقِّ أدَّيتُ(٦)

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٥، ٦٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٦٢).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٨٧) (٢٣٣٨٥).

(٤) يعني الحديث المشروح في هذا الخبر.

(٥) هذا المعنى في المشي إلى العيد روي في أحاديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم، وفي كل منها مقال وأمثلُها حديث علي رضي الله عنه عند الترمذي (٥٣٠) وقال: حسن. أما الصلوات الخمس فداره ﷺ مجاورة للمسجد.

(٦) أورد البيت ضمن أبيات: ابن الجوزي في «المدهش» (ص: ١٤٥). وعنده: «لم أقض حقًّا».

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن أبي هريرةَ، عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ غدا إلى المسْجدِ أوْ راحَ أعدَّ اللهُ له نُزُلاً في الجنَّةِ كلَّما غدا أوْ راحَ»(١).

والنُّزُلُ: هو ما يُعَدُّ للزَّائِرِ عندَ قُدُومِه.

وفي الطَّبرانيِّ مِنْ حديثِ سلمانَ مرفوعاً: «مَنْ توضَّأَ في بيتِه فأحسنَ الوضوءَ، ثمَّ أتى المسجدَ، فهو زائرُ اللهِ تعالى، وحَقٌّ على المَزُورِ أنْ يُكرِمَ الزَّائرَ»(٢).

وفي «صحيحِ مُسلم» عن أُبيِّ بنِ كعبٍ قال: كان رجلٌ لا أعلمُ رَجُلاً أبعدَ مِنَ المسجدِ منه، وكانَ لا تُخطِئُه صلاةٌ في المسجدِ، قالَ: فقيلَ له ـ أوْ قلتُ له ـ لو اشتريتَ حِماراً تركبُه في الظَّلماءِ وفي الرَّمْضاءِ، فقال: ما يَسُرُّني أنَّ منزلي إلى جَنْبِ المسجدِ، إني أُريدُ أن يُكتبَ لي ممشايَ إلى المسجدِ ورُجوعي إذا رَجَعتُ إلى أهلي. فقال رسول الله ﷺ: «قد جَمَعَ اللهُ لكَ ذلكَ كلَّه»(٣).

وكلَّما شَقَّ المشيُ إلى المساجد(٤) كانَ أفضلَ، ولهذا فُضِّلَ المشيُ إلى صلاةِ العِشاء وصلاةِ الصُّبْحِ، وعدل بقيام الليلِ كما في «صحيح مسلمٍ» عن عثمانَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «من صلَّى العشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قام نصَف الليلِ، ومن صَلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قام الليل»(٥).

وفي «الصَّحيحينِ» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «أثقلُ صلاةٍ على

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٢) ولفظه: «من غدا إلى المسجد وراح». بالواو لا بـ (أو).

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٣٩).

(٣) أخرجه مسلم (٦٦٣).

(٤) في (ف): «وكلما شق عليك إلى المساجد»، وفي (ش): «وكلما شق المشي إلى المسجد».

(٥) أخرجه مسلم (٦٥٦).

المنافقينَ صلاةُ العِشاءِ وصلاةُ الفَجْرِ، ولو يعلمون ما فيهما لأَتَوْهما ولو حَبْواً»[١].

وإنما ثَقُلَتْ هاتانِ الصلاتانِ على المنافقينَ لأنَّ المنافقَ لا ينشطُ للصلاةِ إلا إذا رآهُ الناسُ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء: ١٤٢] وصلاة العِشاء والصُّبح يقعان في ظُلْمة، فلا ينشط للمشي إليهما إلا كلُّ مخلِصٍ، يكتفي برؤيةِ اللهِ عزَّ وجل وحدَه لعلْمِه به.

وثوابُ المشيِ إلى المساجد[٢] في الظُّلَمِ: النورُ التَّامُ في ظُلَمِ القيامةِ، كما في «سنن أبي داود» و«الترمذي» عن بُريدةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «بَشِّرِ المَشَّائِينَ في الظُّلَمِ إلى المساجدِ بالنُّورِ التَّامِّ يومَ القيامة»[٣].

وخَرَّجه ابنُ ماجه من حديث سهل بن سعد[٤]، وقد رُوي من وجوهٍ كثيرةٍ، وفي بعضِها زيادةٌ: «يفزَعُ النَّاسُ ولا يَفْزَعون»[٥]. قال النخعي: وكانوا يرون أن المشيَ في الليلةِ الظَّلْماءِ إلى الصَّلاةِ موجِبَة يعني تُوجِبُ المغفرةَ[٦].

ورُوِّينا عن الحسن قال: أهلُ التَّوحيدِ في النَّارِ لا يُقَيَّدون، فيقول الخزنةُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧)، ومسلم (٦٥١).

(٢) في (ش): «الصلاة».

(٣) أخرجه أبو داود (٥٦٢)، والترمذي (٢٢٣) وقال: غريب.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٧٨٠).

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٦٣٣ ـ ٧٦٣٤).

(٦) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/ ٣١ مع إتحاف السادة المتقين). وعنده: «موجب للجنَّة». ونقله البغوي في «شرح السنة» (٢/ ٣٥٨). وأورده المصنف في «فتح الباري» (٣/ ٣٧١) وذكر أنها توجب المغفرة، و(٦/ ٣٥) وذكر أنها توجب لصاحبها الجنة.

بعضهم لبعض: ما بالُ هؤلاءِ لا يُقَيَّدونَ وهؤلاء يُقَيَّدون؟ فيناديهم مُنادٍ: إنَّ هؤلاءِ كانوا يَمْشونَ في ظُلَمِ الليلِ إلى المساجِدِ[١].

كما أَنَّ مواضعَ السُّجودِ من عُصاةِ الموحِّدينَ في النَّارِ لا تَأْكُلُها النَّارُ فكذلكَ الأقدامُ التي تمشي إلى المساجدِ في الظُّلَمِ لا تُقَيَّدُ في النَّارِ، لا يُسَوِّي[٢] في العذابِ بينَ مَنْ خَدَمَهُ وبين مَنْ لم يخدِمْهُ وإن عذَّبه.

ومَنْ كان في سُخْطِهِ مُحْسِناً فكيف يكونُ إذا ما رَضِيْ؟[٣]

لمَّا كانت الصَّلاةُ صِلةً بين العبدِ وربِّه ومناجاةً تظهرُ فيها آثارُ تَجَلِّيهِ لقلوبِ العارفين وقُرْبِه: شُرعَ قبل الدخولِ فيها الطهارةُ فإنَّه لا يَصْلُحُ للوقوفِ بين يدي اللهِ عزَّ وجل والخلوةِ بمناجاته[٤] إلا طاهرٌ، فأما المتلوِّثُ بالأوساخِ الظَّاهرةِ والباطنةِ فلا يَصْلُح للقُربِ؛ فشرعَ اللهُ عزَّ وجلَّ للمصلي غَسلَ أعضائِه بالماءِ، ورتَّبَ عليها طهارةَ الذنوبِ وتكفيرَها، حتى يجتمعَ لِمَنْ يريدُ المناجاةَ طهارةُ ظاهِرِهِ وباطِنه، ثم شرعَ المشيَ إلى المساجدِ، وفيه أيضاً تكفيرُ الخطايا حتَّى تكمل طهارةُ الذنوبِ إن بقيَ منها شيءٌ بعدَ الوضوءِ حتى لا يقفَ العبدُ في مقامِ المناجاةِ إلا بعدَ كمالِ طهارةِ ظاهرةٍ وباطِنةٍ من دَرَنِ الأوساخِ والذنوب، ولهذا شُرِعَ له تجديدُ التَّوبةِ والاستغفارُ

---

(١) لم أجده عند غير المصنِّف. وأورده المصنف في «فتح الباري» (٣/ ٣٧١)، وفي «التخويف من النار» «وقال: وروينا من طريق محمد بن معاوية، حدثنا حَزْم، عن الحسن، فذكره».
وحَزْم: هو حَزْم بن أبي حَزْم، وهو مِهران القُطَعِيُّ، الذي يروي عن الحسن، ويروي عنه محمد بن معاوية.
ومثل هذا المعنى لا يُقال من جهة الرأي، فهو مقطوع له حكم الرفع لكنه مرسل، ولم نقف له على سند.

(٢) في (ت) و(ف): «لا يستوي».

(٣) البيت لأبي محمد عبد المحسن بن محمد الصوري، الشاعر، المتوفى سنة ٤١٩ كما في ترجمته من «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي (٤/ ٢٦٩).

(٤) في (ف): «لمناجاته».

عقيبَ كلِّ وضوءٍ، حتى تكملَ طهارةُ ذنوبِهِ، كما خَرَّجَ النَّسائيُّ من حديثِ أبي سعيدٍ مرفوعاً وموقوفاً: «مَنْ توضَّأ، فأسبغَ الوضوءَ، ثم قال عند فراغِه من وُضوئه: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أستغفرك اللهمَّ وأتوب إليك، خُتِمَ عليها بخاتمٍ؛ فوضعتْ تحتَ العرشِ، فلم يُكسَرْ إلى يومِ القيامةِ»(١).

ومتى اجتهدَ العبدُ على تكميلِ طَهارته ومشيِهِ إلى المسجد، ولم يقوَ ذلكَ كلُّه على تكفيرِ ذنوبِهِ؛ فإنَّ الصلاةَ يكملُ بها التَّكفيرُ كما في الصَّحيحينِ عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أرأيتمْ لو أنَّ نهراً ببابِ أحدِكم يغتَسِلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ، هل يبقى من دَرَنِه شيءٌ؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مَثَلُ الصلواتِ الخمسِ يمحُو اللهُ بهِنَّ الخطايا»(٢) وإن قَوِيَ الوضوءُ وحدَهُ على تكفيرِ الخَطايا، فالمشيُ إلى المسجدِ والصلاةُ بعدَه تكونُ زيادةَ حسناتٍ، وهذا هو المرادُ بقولِ النبيِّ ﷺ في حديثِ عُثمان والصُّنَابحيِّ: «وكان مَشْيُه إلى المسجد، وصلاتُه نافلة» وقد سبقَ ذكرُ الحديثين(٣).

واعلمْ أنَّ جمهورَ العُلماءِ على أنَّ هذه الأسبابَ كلَّها إنَّما تكفِّرُ الصغائرَ دونَ الكبائِر، وقد صَرَّح(٤) بذلكَ عطاءٌ وغيرُه من السَّلَفِ في الوضوء(٥)، وقالَ سلمانُ الفارسيُّ: الوضوء يكفِّرُ الجراحاتِ الصِّغارَ، والمشيُ إلى المسجدِ يكفِّرُ أكثرَ من ذلك، والصلاةُ تكفِّرُ أكثرَ من ذلك. خَرَّجه محمَّدُ بنُ نصرٍ المَروزي(٦).

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٩٨٢٩) مرفوعاً، و(٩٨٣٠) (٩٨٣١) موقوفاً، وصَوَّبه النسائي. وعنده اختلاف ألفاظ عما هنا. أما مثل هذا اللفظ: فرواه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٠) مرفوعاً.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(٣) في أول هذا الفصل.

(٤) في (ش): «فسر». وفي حاشيتها عن نسخة: «استدل».

(٥) نقله المصنف أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٢٥).

(٦) «تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٩٩).

ويدُلُّ على أنَّ الكبائرَ لا تُكفَّرُ بذلك ما في «الصَّحيحينِ» عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ، والجُمعةُ إلى الجمعةِ، ورمضانُ إلى رمضان مكفِّراتٍ لما بينَهُنَّ إذا اجتُنبتِ الكبائرُ»[١].

وفي «صحيحِ مسلم» عن عثمان، عن النبي ﷺ قال: «ما من امرئٍ مسلمٍ تحضُرُه صلاةٌ مكتوبةٌ، فيُحسنُ وضوءَها وخُشوعَها وركوعَها[٢] إلا كانتْ كفارةً لما قَبْلَها من الذنوب، ما لم تؤتَ كبيرةٌ وذلكَ الدهر كله[٣].

إلى كَمْ تُيَسَّرُ لكَ أسبابُ تكفيرِ الخطايا لَعلَّكَ تَطَّهَّرُ منها قبلَ الموتِ فتلقاهُ طاهِراً فتصلحَ لمجاورتهِ في دارِ السَّلام، وأنت تأبى إلا أنْ تموتَ على خبثِ الذُّنوب؛ فتحتاجُ إلى تطهيرها في كِيْرِ جهنم! يا هذا أَمَا علمتَ أنَّه لا يَصْلُحُ لقُرْبنا إلا طاهرٌ؟ فإذا أردْتَ قُرْبنا ومناجاتنا اليومَ فطهِّرْ ظاهِرَكَ وباطِنَكَ؛ لتَصْلُحَ لذلك، وإن أردْتَ قُربنا ومجاورتنا[٤] غداً: فطهِّرْ قلبَك مِنْ سِوانا لتَصْلح لمجاورتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

القلبُ السَّليمُ الذي ليسَ فيه غيرُ محبَّةِ الله ومحبَّةِ ما يُحِبُّه.

إنَّ اللهَ طَيِّبٌ لا يقبلُ إلا طَيِّباً، فما كلُّ أَحَدٍ يَصْلح لمجاورةِ اللهِ تعالى غَداً، ولا كلُّ عبدٍ يَصْلح لمناجاتهِ[٥] اليوم، ولا على كل الحالات تَحْسُنُ المناجاةُ.

---

(١) هذا اللفظ إنما هو في مسلم (٢٣٣). ولا يوجد في البخاري.

(٢) زاد في (ش): «وسجودها»، وليست في مطبوعة «صحيح مسلم».

(٣) «صحيح مسلم» (٢٢٨).

(٤) في (ش): «ومناجاتنا».

(٥) في (ش): «لمناجاة الله».

الناسُ من[١] الهوى على أصنافٍ:

هــذا نَقَــضَ العهــدَ وهــذا وافــي

هيهـات مـن الكُـدُور تَبْغِـي الصَّافي

مـا يَصْلُـح للحَضْـرةِ قَلْـبٌ جافـي[٢]

السَّبَبُ الثَّالِثُ من مُكَفِّراتِ الذُّنوبِ: الجُلوسُ في المساجد بعد الصَّلوات: والمراد بهذا الجلوس: انتظارُ صلاةٍ أخرى، كما في حديثِ أبي هُريرة: «وانتظارُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ، فذلِكُم الرِّباطُ فذلكم الرِّباطُ»[٣] فجعلَ هذا من الرِّباط في سبيل الله عَزَّ وجَلَّ، وهذا أفضلُ من الجلوسِ قبل الصَّلاةِ لانتظارها؛ فإنَّ الجالسَ لانتظارِ الصَّلاةِ ليُؤَدِّيها ثم يذهب تقصُرُ مدةُ انتظاره، بخلاف مَنْ صلَّى صلاةً ثمَّ جلسَ ينتظرُ أُخرى؛ فإنَّ مُدَّته تَطُول، فإنْ كانَ كلَّما صلَّى صلاةً جَلَسَ يَنْتَظِرُ ما بَعْدَها فقد استغرقَ عُمُرَهُ بالطَّاعةِ، وكانَ ذلكَ بمنزلةِ الرِّباطِ[٤] في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ.

وفي «المُسْند» و«سنن ابن ماجهْ» عـن عبد الله بـن عمرو قال: صلَّينا مع رسولِ الله ﷺ المَغْرِبَ فَرَجَع مَنْ رَجَعَ، وعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ[٥] فجاءَ رسولُ الله ﷺ مُسْرعاً قد حَفَزَهُ النَّفَسُ، قَدْ حَسَرَ عن رُكبتيه فقال: «أَبشِرُوا. هذا ربُّكم قد فَتَحَ باباً

---

(١) في حاشية (ش) عندها: «لعله: في».

(٢) هذان البيتان من بحر الدوبيت، وليس هو من أوزان الخليل، وإنما هو من الأوزان الشعرية المستحدثة في العصر العباسي.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥١).

(٤) في حاشية (ش): «المرابط».

(٥) قال ابن الأثير في «النهاية» (٦/ ٢٨٢٧): «أي أقام في مصلاه بعدما يفرغ من الصلاة. يقال: صلّى القومُ وعقَّبَ فلان».

من أبوابِ السَّماءِ يُبَاهي بكمُ الملائكةَ يقول: انظروا إلى عِبادي قد قَضَوا فريضةً وهم يَنْتَظِرون أُخرى»[١].

وفي «المُسند» عن أبـي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «منتظِرُ الصلاةِ مِنْ بعد الصَّلاةِ كفارسٍ اشتدَّ به فرسُه في سبيلِ الله على كشحه، تُصَلِّي عليه ملائكةُ اللهِ ما لم يُحْدِثْ، أو يقومُ، وهو في الرِّباط الأكبر»[٢].

ويدخل في قوله: «والجلوسُ في المساجدِ بعد الصَّلَوات»: الجلوسُ للذِّكرِ والقراءةِ وسَماعِ العلمِ وتعليمِه ونحوِ ذلك، لا سيَّما بعدَ صلاة الصُّبحِ حتى تطلعَ الشمسُ، فإنَّ النصوصَ قد وردتْ بفضلِ ذلكَ وهو شبيهٌ بجلوسِ مَنْ جَلَسَ ينتظِرُ صلاةً أُخرى، لأنه قد قَضى ما جاءَ إلى المسجدِ لأجلِهِ من الصَّلاةِ وجلسَ ينتظِرُ طاعةً أُخرى.

وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ قال: «وما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ الله تعالى يَتْلُون كتابَ اللهِ ويتدارسُونَه بينهم إلا نَزَلتْ عليهمُ السَّكِينَةُ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ، وحَفَّتْهُم[٣] الملائكةُ، وذكرَهم اللهُ فيمن عِنْده»[٤]. وأمَّا الجالسُ قبلَ الصَّلاةِ في المسجدِ لانتظار تلكَ الصلاةِ خاصةً فهو في صلاةٍ حتَّى يُصلي.

وفي «الصحيحين» عن أنس، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه لما أَخَّر صلاةَ العِشاءِ الآخرةِ ثم خَرَجَ فصلَّى بهم قال لهم: «إنَّكم لم تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتُم الصَّلاة»[٥].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٦٧٥٠)، وابن ماجه (٨٠١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٨٦٢٥).

(٣) في (ش): «وحفت بهم».

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٨٤٧)، ومسلم (٦٤٠).

وفيهما أيضاً عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «الملائكةُ تصلِّي على أحدِكم ما دام في مُصَلَّاه ما لم يُحْدِث: اللهمَّ اغفرْ له، اللهمَّ ارحمْه، ولا يزالُ أحدُكم في صَلاةٍ ما كانت الصلاةُ تحبِسُه، لا يمنعه أنْ ينقلبَ إلى أهلِه إلا الصَّلاةُ»(١).

وفي روايةٍ لمسلمٍ: «ما لم يُؤْذِ فيهِ ما لم يُحْدِثْ فيه» وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالحَدَثِ: حَدَثُ اللِّسانِ ونحوِهِ من الأذى، وفَسَّرهُ أبو هريرة بحَدَثِ الفَرْج(٢)، وقيل إنه يَشْمل الحَدَثَين.

وفي «المُسند» عن عُقْبَة بن عامر، عن النبيِّ ﷺ قال: «القاعِدُ يَرْعى الصَّلاةَ كالقانِتِ، ويُكْتبُ من المُصَلِّين من حينِ يخرجُ من بيتِهِ حتى يرجعَ إليه»(٣).

وفي روايةٍ له: «فإذا صلى في المسجد ثم قعدَ فيه كان كالصَّائِمِ القَانِتِ حتى يرجع»(٤) وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة.

وبالجُملة: فالجلوسُ في المساجدِ(٥) للطَّاعات له فَضْلٌ عَظيمٌ، وفي حديثِ أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «لا يُوَطِّنُ رجلٌ المساجدَ للصَّلاةِ والذكر إلا تَبَشْبَشَ اللهُ عزَّ وجلَّ [به](٦) كما يَتَبَشْبَشُ أهلُ الغائِب إذا قَدِمَ عليهم غائبُهم»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩)، ومسلم (٦٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٦٤٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٤٤٠).

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٧٤٥٦).

(٥) في (ف): «المسجد».

(٦) من مصادر التخريج. والبَشُّ: فرح الصديق بالصديق، واللطف في المسألة والإقبال عليه. وهذا مثل ضربه لتلقيه إياه ببره وتقريبه وإكرامه. كما في «النهاية» لابن الأثير (١/ ٣١٣).

(٧) أخرجه الإمام أحمد (٨٣٥٠)، وابن حبان (٢٢٧٨)، وغيرهما.

وروى دَرَّاجٌ عن أبي الهيثَم، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مَنْ أَلِفَ المسجدَ أَلِفَهُ الله عَزَّ وجلَّ»[١].

وقال سعيد بن المسيّب: من جلس في المسجد فإنما يُجالِسُ اللهَ عزَّ وجلَّ[٢].

وصَحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه عَدَّ من السَّبعةِ الذين يُظِلُّهم اللهُ في ظلِّه يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه: رَجلٌ قلبُه معلقٌ بالمسجدِ إذا خَرجَ منه حتى يعودَ إليه[٣].

وإنما كان ملازمةُ المسجدِ للطَّاعات مُكَفِّراً للذنوبِ لأنَّ فيه مجاهدةَ النفس، وكفّاً لها عن أهوائِها، فإنَّها لا تَميلُ إلا إلى الانتشارِ في الأرضِ؛ لابتغاءِ الكَسْبِ أو لمجالسَةِ النَّاسِ لمحادَثتهم[٤]، أو لتنزهٍ في الدورِ الأنيقةِ والمساكنِ الحَسَنَةِ ومواطِنِ التَّنزُّهِ ونحو ذلك، فمن حبسَ نفسَه في المساجِدِ على الطَّاعةِ فهو مُرابطٌ لها في سبيل الله، مخالفٌ لهواها وذلكَ من أفضَلِ أنواعِ الصَّبْرِ والجهاد.

وهذا الجنسُ ـ أعني ما يؤلمُ النفسَ ويخالفُ هواها ـ فيه كفارةٌ للذنوبِ وإنْ كانَ لا صُنْعَ للعبدِ فيه، كالمرضِ ونحوِه، فكيفَ بما كان حاصِلاً عن فِعْلِ العبدِ واختيارِهِ إذا قصد به التقرُّبَ إلى الله عزَّ وجلَّ، فإنَّ هذا من نوعِ الجهادِ في سبيل الله، الذي يَقتَضِي تكفيرَ الذنُوبِ كلِّها، ولهذا المعنى كانَ المشيُ إلى المساجدِ كفارةً للذنوبِ أيضاً، وهو نوع من الجِهاد أيضاً، كما خَرَّجَه الطبرانيُّ من حديثِ أبي أُمامة

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٣٨٣). وقد تفرَّد بهذا اللفظ عمرو بن خالد عن ابن لهيعة عن درّاج. وله لفظ آخر عن درّاج رواه الترمذي (٢٦١٧) وغيره.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٤١٦)، ولفظه: «يجالس ربه».

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الإمام مالك في «الموطأ» (١٨٤١) من حديث أبي سعيد أو أبي هريرة، ومن طريقه مسلم (١٠٣١) وهو في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة دون شك. أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٤) في (ش): «ومحادثتهم».

عن النبيِّ ﷺ: «الغُدُوُّ والرَّواحُ إلى المساجدِ من الجهادِ في سبيل الله عز وجل»[١].

كان زيادٌ مولى ابنِ عيَّاشٍ أحدَ العُبَّادِ الصَّالحين، وكانَ يلازِمُ مسجدَ المدينةِ فسمعوه يومًا يُعاتِبُ نفسَه، ويقول لها: أين تُريدين؟ تريدينَ أنْ تذهبي إلى أحسن من هذا المسجدِ؟ تريدين أن تُبْصِري دارَ فلانٍ ودارَ فلان[٢].

لما كانت المساجدُ في الأرضِ بيوتَ اللهِ: أضافَها اللهُ إلى نفسهِ تَشْريفاً لها. تعلَّقتْ قلوبُ المحبينَ للهِ عَزَّ وجَلَّ بها لنسبتِها إلى مَحبُوبهم، وارتاحوا[٣] إلى مُلازمتها لإظهارِ ذكرِهِ فيها ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]. أين يذهبُ المحبُّون عن بيوتِ مولاهُم؟ قلوبُ المحبين ببيوت مَحبُوبهم مُتعلِّقةٌ، وأقدامُ العابدين إلى بيوتِ مَعْبُودهم مُتَرددةٌ.

يا حبَّذا العَرْعَرُ النَّجْدِيُّ والبَانُ ... ودارُ قومٍ بأكنافِ الحمى بَانُوا

وأطيبُ الأرضِ ما للنَّفْسِ[٤] فيه هوىً ... سَمُّ الخِياطِ مع المحبوبِ مَيْدانُ

لا يُذكَرُ الرَّمْلُ إلا حَنَّ مُغْتَربٌ ... له بذي الرَّمْلِ أوطارٌ وأوطانُ

تهفُو إلى البانِ مِنْ قلبي نوازعُه ... وما بِيَ البانُ بَلْ مَنْ دَارُه البانُ[٥]

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٧٣٩) مرفوعاً. وأخرجه الإمام أحمد عقب حديث (٢٢٣٠٤) موقوفاً، وهو الصواب، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» (١٤٩). ومن طريقه: البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٩٩). وزياه هو زياد بن أبي زيادة ميسرة، مولى عبد الله بن عيَّاش القرشي المدني. وتصحف «عياش» في (ت) و(ف) إلى «عباس».

(٣) في (ش): «وانقطعت».

(٤) في (ت) و(ف): «للقلب» وأشير إليها نسخةً في حاشية (ش).

(٥) البيتان الأولان هما لإبراهيم بن عثمان الغزي، المتوفى (سنة ٥٢٣ هـ)، وهما في ديوانه (ص: ٥٢٠) =

الفصل الثَّاني
في ذِكْرِ الدَّرجاتِ المذكورةِ في حديثِ مُعاذ

وهي ثلاث:

أحدها: إطعامُ الطَّعام، وقد جعله اللهُ في كتابِه من الأسبابِ الموجبةِ للجنَّةِ ونعيمِها. قال الله عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٢١] الآيات؛ فوصفَ فاكهتَهم وشرابَهم جزاءً لإطعامِهم الطَّعام.

وفي «الترمذيّ» من حديث أبي سعيدٍ الخُدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أيما مؤمنٍ أطعمَ مُؤمناً على جوعٍ أطعمَه اللهُ من ثمارِ الجنَّة، ومَنْ سقى مؤمناً على ظَمأ سقاهُ الله من الرَّحيقِ المختوم»(١).

وفي «المسند» و«الترمذي» عن عليِّ بن أبي طالبٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إن في الجنَّةِ غُرَفاً يُرى ظاهِرُها من باطِنِها وباطِنُها من ظاهِرِها» قالوا: لمن هي يا

= المطبوع بتحقيق د. عبد الرزاق حسين. مركز جمعة الماجد ١٤٢٩/ ٢٠٠٨.

أما البيتان الآخران فهما للشريف الرضي في قصيدة طويلة، وفي (ت) و(ف): «يهفو إلى البان».

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٤٩) وقال: غريب، وذكر أنه رُوي موقوفاً على أبي سعيد، وقال: «وهو أصح عندنا وأشبه». وأبو داود (١٦٧٩).

رسول الله؟ قال: «لمنْ أطعمَ الطَّعامَ، وأطابَ الكلامَ، وصلَّى بالليلِ والناسُ نِيام»[١].

وفي حديثِ عبدِ الله بن سَلَام الذي خَرَّجه أهلُ السُّنَنِ: أنه سَمعَ النبيَّ ﷺ أولَ قُدومِهِ المدينةَ يقول: «أيُّها الناس! أفشُوا السَّلامَ، وأطعمُوا الطَّعامَ، وصِلُوا الأرحامَ، وصَلُّوا باللَّيلِ والناسُ نيام، تَدْخُلوا الجنَّةَ بسلام»[٢].

وفي حديثِ عُبَادةَ عن النبيِّ ﷺ: أنه سُئِل أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: «إيمانٌ باللهِ وجهادٌ في سبيله وحَجٌّ مَبرور، وأهونُ من ذلكَ: إطعامُ الطَّعامِ ولِينُ الكَلام». خَرَّجه الإمامُ أحمد[٣].

وفي حديثِ هانئ بن يزيد أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله دُلَّني على عملٍ يُدْخِلُني الجنَّةَ ويباعدني مِنَ النَّارِ قال: «تُطْعِمُ الطَّعامَ وتُفْشي السَّلام»[٤].

وفي حديثِ حُذيفةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «من خُتِمَ لهُ بإطعامِ مِسكينٍ دخلَ الجنَّة»[٥].

وفي «الصَّحيحينِ» من حديثِ[٦] عبدِ الله بن عَمروٍ: أنَّ رجُلاً قال: يا رسولَ الله

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٣٣٨)، والترمذي (١٩٨٤) وقال: غريب. وفي ألفاظه اختلاف يسير عما هنا.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: صحيح، وابن ماجه (١٣٣٤) (٣٢٥١) واللفظ لآخرها.

(٣) أخرج أصله الإمامُ أحمد (٢٢٧١٧) لكنه بنحو هذا اللفظ عند أبي يعلى في «مسنده الكبير»، (كما في «إتحاف الخيرة المهرة» (٢).

(٤) أخرج ابن حبان (٤٩٠) (٥٠٤) نحوه، وهو بهذا اللفظ دون ذكر «النار» في «المنتقى من مسموعات مرو» للضياء المقدسي (٢٥٢).

(٥) أصله في مسند الإمام أحمد (٢٣٣٢٤)، وهو بنحو هذا اللفظ في «أخبار أصبهان» لأبي نعيم (٤٣٣).

(٦) في (ش): «عن» بدلًا من «من حديث».

أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعامَ وتقرأ السلامَ على من عَرَفتَ ومَنْ لم تَعْرِف»[١].

وفي حديثِ صُهيب عن النبيِّ ﷺ قال: «خيركُم من أطعمَ الطَّعامَ». خَرَّجَهُ الإمامُ أحمد[٢].

فإطعامُ الطَّعام يُوجِبُ دخولَ الجنَّةِ، ويباعِدُ من النَّارِ ويُنْجي منها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ ـ ١٦] الآية.

وفي الحديثِ الصَّحِيحِ عن النبيِّ ﷺ: «اتقوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تمرةٍ»[٣].

وكانَ أبو موسى الأشعريُّ يقول لولده: اذكُروا صاحِبَ الرَّغيف، ثم ذكرَ أنَّ رجلاً من بني إسرائيلَ عَبَدَ اللهَ سبعينَ سنةً، ثم إنَّ الشَّيطانَ حَسَّنَ في عَيْنَيْهِ امرأةً، فأقامَ معها سبعةَ أيَّامٍ، ثمَّ خَرَجَ هارباً، فأقامَ[٤] مع مساكين، فتُصُدِّقَ عليه برغيفٍ كانَ بعضُ أولئكَ المساكين يريدُه، فآثرهُ به. ثُمَّ ماتَ. فوُزِنَتْ عبادَتُه بالسَّبعَةِ أيَّامٍ التي معَ المرأةِ فرَجَحَت الأيامُ السبعةُ بعبادتِهِ، ثم وُزِنَ الرغيفُ بالسَّبعةِ الأيامِ فرجَحَ بها[٥].

ويتأكَّدُ إطعامُ الطعامِ للجَائِعِ وللجيرانِ خُصُوصاً.

وفي «الصَّحيحِ» عن أبي مُوسى الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «أطعِمُوا الجائعَ، وعُودوا المريض، وفُكُّوا العَاني»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٩٢٩).

(٣) أخرجه البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) في (ت) و(ف): «فنام».

(٥) أخرج القصة ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٦٠٥٩)، وذكرها المصنف مختصرة أيضاً في «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٣٦).

(٦) أخرجه البخاري (٥٣٧٣). والعاني: الأسير.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذَرٍّ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «يا أبا ذرٍّ! إذا طَبَخْتَ مَرَقَةً فأكثرْ ماءَها وتعاهَدْ جيرانَك»(١).

وفي «المُسْنَد» و«صحيحِ الحاكم» عن ابن عمر(٢) عن النبيِّ ﷺ قال: «أيما أهلُ عَرْصَة(٣) أصبحَ فيهم امرؤ جائعاً فقدْ بَرِئتْ منهُم ذِمَّةُ اللهِ عَزَّ وجل»(٤).

وقال ﷺ: «لا يَشْبَعُ المؤمنُ دونَ جاره»(٥).

وفي «صحيحِ الحاكمِ» عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «ليسَ بالمؤمنِ الذي يَشْبَعُ وجارهُ جائعٌ»(٦).

وفي رواية: «ما آمنَ مَنْ باتَ شَبْعانًا وجارُه طاوياً»(٧).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٥).

(٢) سبق قلم الناسخ في (ش) فكتب: «وصحيح ابن حبان عن عمر». وكتب ناسخ (ف): «وصحيح الحاكم عن ابن عباس» وفي كليهما خطأ، والصواب المثبت اعتماداً على مصادر التخريج.

(٣) العَرْصَة: البقعة الواسعة التي تكون بين الدور ليس فيها بناء.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (٤٨٨٠) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١١ ـ ١٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
قال الحاكم: «هذه الأحاديث الستة طلبتها وخرجتها في موضعها من هذا الكتاب احتساباً لما فيه الناس من الضيق والله يكشفها، وإن لم يكن من شرط هذا الكتاب»... اللهم وسع ضيق القبر على عبدك أبي عبد الله النيسابوري يا أرحم الراحمين.

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٥١٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ١٦٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. قال الذهبي: سنده جيد.

(٦) هو في «المستدرك» (٤/ ١٦٧) وقال صحيح الإسناد، ولفظه: «ليس المؤمن الذي يبيت وجاره إلى جنبه جائع».

(٧) كذا جاء مصروفاً! أخرجه ابن أبي شيبة في «الإيمان» (١٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، بلفظ: «ما هو بمؤمن من بات شبعان وجاره طاو إلى جانبه»، وأخرجه البزار (٧٤٢٩) بلفظ: «ليس المؤمن الذي يبيت شبعان وجاره طاوٍ» من حديث أنس رضي الله عنه.

فأفضل أنواعِ إطعامِ الطَّعامِ: الإيثارُ مع الحاجةِ كما وصفَ اللهُ تعالى بذلكَ الأنصارَ رضي الله عنهم فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، وقد صَحَّ أن سببَ نزولِها: أن رجلًا منهم أخذَ ضَيفاً من عند النبيِّ ﷺ ليُضَيِّفَهُ فلم يجدْ عندَه إلا قوتَ صِبْيَانِه فاحتالَ هو وامرأتُه حتى نَوَّما صِبيانَهما[١]، وقام إلى السِّراجِ كأنَّه يُصْلِحُه فأطفأه، ثم جَلَس مع الضَّيْفِ يُريه أنَّه يأكلُ معه، ولَمْ يأكلْ. فلما غَدَا على رسول الله ﷺ قال له: «لقدْ عجبَ اللهُ من صنيْعِكما الليلة» ونزلت هذه الآية[٢].

وكان كثيرٌ من السَّلَفِ يؤثِرُ بفطوره وهو صائمٌ، ويصبحُ صائماً منهم: عبدُ الله بن عُمر[٣]، وداودُ الطائي، وعبدُ العزيز بن سليمان، ومالكُ بن دينار، وأحمدُ بن حنبل، وغيرهم[٤].

وكان ابنُ عُمَر لا يُفْطِرُ إلا مع اليتامى والمساكين، وربما عَلِمَ أنَّ أهلَه قد ردُّوهُم عنه فلم يفطرْ تلكَ الليلة[٥].

ومنهم مَنْ كان لا يأكلُ إلا مع ضَيفٍ له. قال أبو السَّوَّار العَدَويُّ: كان رجالٌ من بني عَدِيٍّ يُصَلُّون في هذا المسجدِ، ما أفطرَ أحدٌ منهُم على طعامٍ قَطُّ وحدَه، إنْ وجدَ من يأكلُ معه أكلَ، وإلا أخرجَ طعامَه إلى المسجدِ فأكلَهُ مع النّاسِ وأكلَ الناسُ معَه[٦].

---

(١) في (ت) و(ف): «نوموا صبيانهم».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه.

(٣) في (ت) و(ف): «عمرو» وهو خطأ.

(٤) أخبارهم عند ابن أبي الدنيا في «الجوع»: (٥٠، ٢٩٥، ٢٩٧، ٢٩٨). وتركُ الإمامِ أحمدَ للماء المثلج عند فطره في «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (ص: ٤٤٤)، وذكر المصنف في «لطائف المعارف» (ص ٣١٤) أن سائلاً جاء إلى الإمام أحمد، فدفع إليه رغيفين كان يعدهما لفطره، ثم طوى وأصبح صائماً.

(٥) «الجوع» لابن أبي الدنيا (٢٩٠).

(٦) أخرجه البرجلاني في «الكرم والجود وسخاء النفوس» (٥٥).

وكان منهم من يُطْعِمُ إخوانَه الطعامَ وهو صائمٌ ويجلسُ يخدُمُهم ويُرَوِّحهم [١] منهم: الحسنُ وابن المبارك[٢].

وكان ابنُ المبارك ربَّما يشتهي الشَّيءَ فلا يصنَعُه إلا لضيفٍ ينزلُ به، فيأكُلُه مع ضَيْفه[٣].

وكانَ كثيرٌ منهم يُفَضِّلُ إطعامَ الإخوانِ على الصَّدقةِ على المساكين. وقد رويَ هذا المعنى مرفُوعاً من حديثِ أنسٍ بإسنادٍ ضعيفٍ[٤]، ولاسيَّما إنْ كان الإخوانُ لا يجدونَ مثلَ ذلكَ الطعام.

كان بعضُهم يعملُ الأطعمةَ الفاخِرةَ، ثم يطعِمُها إخوانَه الفقراءَ ويقول: إنَّهم لا يجدُونها[٥].

وبعضهم يصنَعُ له طعاماً، ولا يأكلُ، ويقول[٦]: إني لا أشتَهِيهِ وإنَّما صنعُته لأجلِكُم[٧].

---

(١) أي: يبذل خدمته لراحتهم، أو يطيبهم.

(٢) ذكر المصنف ذلك عن الحسن وابن المبارك في «لطائف المعارف» (ص ٣١٤) أيضاً. وكان ابن المبارك يطعم رفاقه الخَبِيصَ، وهو الدهر صائم. انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (٣٢/ ٤٢٦).

(٣) ومثله ما روي عن أبي حمزة محمد بن ميمون السكري قال: «ما شبعت منذ ثلاثين سنة إلا أن يكون لي ضيف»، «تاريخ بغداد» (٤/ ٤٣٥).

(٤) ذكره الديلمي في «الفردوس» (٧٨٦٠) حديثاً بهذا المعنى، ولفظه: «لأن تدعو أخاك المسلم فتطعمه وتسقيه أعظم لأجرك من أن تتصدق بخمسة وعشرين درهماً».

(٥) كما نقل عن ابن سيرين رحمه الله أنه قال لأضيافه: ما أدري ما أتحفكم؟ كل رجل فيكم في بيته خبز ولحم، ولكن سأطعمكم شيئاً لا أراه في بيوتكم، فجاء بشهدة فكان يقطع بالسكين ويلقمهم. أخرجه ابن أبي الدنيا في «قرى الضيف» (٦٥).

(٦) في (ت) و(ف) بدلًا من هذه الجملة: «ومنهم من يقول».

(٧) وهو خيثمة بن عبد الرحمن رحمه الله، وخبره في «الإخوان» لابن أبي الدنيا (٢١٠)، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم (٤/ ١١٣).

وبعضهم اتَّخذَ حلواءَ، وأطعمَه لمعتوه[١] فقال له أهلُه: إن هذا لا يدري ما يأكلُ، فقال: لكنَّ اللهَ يدري[٢].

واشتَهى الربيعُ بن خُثيم حلواءَ، فلما صُنِعتْ له دعا بالفُقراء فأكلُوا، فقال له أهله: أتعبتَنا ولم تأكلْ، فقال: ومَنْ أكلَه غيري[٣].

وقال آخرُ منهم ـ وجرى له نحو من ذلك ـ: إذا أكلتُه كانَ في الحُشِّ، وإذا أطعمتُه كانَ عندَ الله مذخوراً[٤].

ورُوي عن علي رضي الله عنه قال: لأنْ أجمعَ ناساً من إخواني على صاعٍ من طعامٍ أحبُّ إليَّ من أن أدخلَ سُوقَكُم هذا فأبتاعَ نسمةً فأعتقَها[٥].

وعن أبي جَعفر محمد بن عليٍّ قال: لأنْ أدعُو عشرةً من أصحابي فأطعمَهم طعاماً يشتهُونه أحبُّ إليَّ مِنْ أَنْ أُعتِقَ عشرةً مِنْ وَلَدِ إسماعيل[٦].

---

(١) في (ش): «اتخذ حلاوة فأطعمها المعتوه».

(٢) هو الربيع بن خثيم رحمه الله، وخبره في «حلية الأولياء» (٢/ ١٠٧) وعنده في آخر الخبر: «لكنَّ اللهُ».

(٣) نقله ابن الجوزي في كتابه «التبصرة» (٢/ ٢٥٩).

(٤) هو داود الطائي رحمه الله تعالى. والخبر في إطعامه الأيتام أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٧/ ٣٥١).

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٦٦)، وابن أبي الدنيا في «الإخوان» (١٩٩) بنحوه.

(٦) لم أجد هذا الأثر عن الإمام الجليل محمد الباقر رضي الله عنه.

وقد روي من طريق عبيد الله بن الوليد الوصافي عن أبي جعفر مرفوعاً مرسلاً: «لأن أعطي أخاً في الله درهماً أحبُّ إلي من أن أتصدق بعشرة...». انظر: «الإخوان» لابن أبي الدنيا (١٧٥).

والحديث روي بطرق مختلفة. انظر: «الزهد» لابن المبارك (٢٥٨)، و«تاريخ جرجان» (ص ٣٥٩)، و«الغيلانيات» (٧٧)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٩١٨١).

أأصفُ الإيثارَ لمَنْ يبخَل بأداءِ الحقوقِ الواجبةِ على الأعيان[١]؟

أأطلبُ الشَّجاعة من الجَبان، أو أستشهدُ على رؤيةِ الهلالِ مَنْ هُو مِنْ جُملةِ العُميان؟

كم بينَ مَنْ قِيلَ فيه: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٦]، وبين مَنْ قِيلَ فيه ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، كم بيننا وبين القَوْم! كما بين اليَقَظة والنَّوم.

لا تَعْرِضَنَّ لـذِكـرنـا فـي ذِكْـرِهـم ليسَ الصحيحُ إذا مشى كالمُقْعَدِ[٢]

فيا مَنْ يطمعُ في عُلوِّ الدرجاتِ من غيرِ عملٍ صالحٍ هيهات هيهات ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٢١].

نزلـوا بمكـةَ فـي قبائـلِ نَوْفَلٍ[٣] ونَزَلْـتَ بالبَيْـداءِ أبعـدَ مَنْـزِلِ[٤]

الثاني من الدَّرجَات: لينُ الكلام، وفي روايةٍ إفشاءُ السَّلام، وهو داخلٌ في لِينِ الكلامِ وقد قال الله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣] وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [البقرة: ٥٣] وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى

---

(١) في (ش): «عليه» بدلًا من «على الأعيان».

(٢) نسبه المصنف في «فضل علم السلف» إلى ابن المبارك، وفي «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ٢٦٦): أنَّ مَخْلد بن الحسين كان يتمثل به.

(٣) في (ت) و(ف): «هاشم». ويُذكر هذا البيت في المصادر باللفظين.

(٤) هذا البيت تمثَّل به كثير من المؤلفين في ذكر المفارقة بين الأشياء. وقد أورده القاضي عبد الحق الإشبيلي في كتابه «العاقبة في ذكر الموت». (ص ١٧٧).
وأتبعه بعدة أبيات على وزنه وقافيته، ثم قال: «البيت الأول قديم».

هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] ولمّا قال النبيُّ ﷺ: «الحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنَّة» قالوا له: وما الحجُّ المبرورُ يا رسولَ الله؟ قال: «إطعامُ الطَّعامِ ولِينُ الكلامِ» خَرَّجَه الإمامُ أحمد(١).

وقد تقدَّمَ في ذكرِ إطعامِ الطَّعامِ أحاديثُ أُخَرُ في طِيبِ الكلام.

وفي الحديثِ الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ: «والكلمةُ الطَّيبةُ صدقة»(٢).

وفيه أيضاً: «اتَّقوا النارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ، فمنْ لم يَجدْ فبِكلمةٍ طَيبةٍ»(٣).

وأما إفشاءُ السَّلامِ فمن مُوجباتِ الجنَّة.

وفي «صحيحِ مُسلم» عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «والذي نفسي بيدِه لا تَدْخُلُوا الجنَّةَ حتى تُؤمنُوا، ولا تؤمنُوا حتى تحابُّوا، ألا أَدُلُّكُم على شيءٍ(٤) إذا فَعلتُموه تحاببتُم: أفشُوا السَّلامَ بينكُم»(٥).

وخَرَّجَ الإمامُ أبو داودَ من حديثِ أبي أُمامة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أولى الناسِ بالله مَنْ بدأَهُم بالسَّلام»(٦).

---

(١) أخرجه من حديث جابر رضي الله عنه: الإمام أحمد (١٤٤٨٢) (١٤٥٨٢) لكن عنده: «وإفشاء السلام» بدلاً من «لين الكلام».
وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٨٣) ولفظه: «وطيب الكلام». وقال: صحيح الإسناد...

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩)، ومسلم (١٠٠٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٠)، وسبق تخريجه من موضع آخر في الصحيح من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٤) في (ف): «عمل».

(٥) أخرجه مسلم (٥٤).

(٦) أخرجه أبو داود (٥١٥٥).

ويُروى من حديثِ ابنِ مسعودٍ مرفوعاً وموقوفاً: إذا مَرَّ الرجلُ بالقومِ فسلَّمَ عليهم فردُّوا عليه كانَ لهُ عليهم فضْلُ درجةٍ؛ لأنه ذكرهم بالسَّلام، وإنْ لَمْ يَرُدوا عليه رَدَّ عليه ملأٌ خيرٌ منهم وأطيب(١).

وقد رُوي من حديثِ عِمران بن حُصين وغيره: أنَّ رجُلاً دخل على النبيِّ ﷺ فقال: السلامُ عليكم فقال النبيُّ ﷺ: «عشر» ثم جاءَ آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله، فقال رسول الله ﷺ: «عشرون»، ثم جاءَ آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، فقال رسول الله ﷺ: «ثلاثون». خَرَّجَه الترمذيُّ وغيرهُ(٢).

وخَرَّجَه أبو داودَ وزاد: ثم جاءَ آخرُ فقال: السلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه ومغفرتُه، فقال النبيُّ ﷺ: «أربعون»، ثم قال: «هكذا تكون الفضائل»(٣).

وقد سبقَ حديثُ: «أن تقرأ السَّلامَ على من عَرَفتَ ومن لم تَعْرفْ»(٤).

وفي حديث ابن مسعود مرفوعاً: «من أشراطِ الساعة: السلامُ بالمعرفة». خرَّجهُ الإمامُ أحمد(٥).

وإنما جمعَ بين إطعامِ الطَّعام ولِينِ الكلام، ليكمُلَ بذلكَ الإحسانُ إلى الخَلْقِ بالقولِ والفِعل، فلا يتمُّ الإحسانُ بإطعامِ الطَّعامِ إلا بِلِيْنِ الكلامِ وإفشاءِ السَّلام، فإن

---

(١) أخرجه موقوفاً البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٣٩)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٤٠٠) وقال: وقد روي مرفوعاً من وجه ضعيف (٨٤٠١)، وروي من وجه آخر مرفوعاً وهو أيضاً ضعيف (٨٤٠٢) (٨٤٠٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٧١) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٥٣) (٥١٥٤).

(٤) في أول الفصل الثاني.

(٥) انظر: «مسند الإمام أحمد» (٣٨٤٨).

إساءَة الكلام[١] تُبْطِلُ الإحسانَ بالفعلِ من الإطعامِ وغيرِه، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤] وربما كانَ معاملةُ الناسِ بالقَولِ الحسنِ أحبَّ إليهم مِنَ الإحسانِ بإعطاءِ المالِ، كما قال لقمانُ لابنه: يا بُنَيَّ لتكن كلمتُك طيبةً، ووجهُك منبسطاً؛ تكن أحبَّ إلى الناسِ ممن يُعطيهم الذَّهبَ والفِضَّة[٢].

وقد كانَ النبيُّ ﷺ يُلينُ القولَ لمن يُشْهَدُ له بالشَّرِّ؛ فيتَّقي بذلكَ شرَّه[٣]. وكانَ ﷺ لا يواجِهُ أحداً بما يَكْره في وَجْهِه[٤]، ولم يكنْ ﷺ فَحَّاشاً ولا مُتَفَحِّشاً[٥].

ورُوي عن ابن عُمرَ أنه كان يُنْشِدُ:

[بُنَيَّ] إنَّ البِرَّ شيءٌ هيِّنُ ... وَجْهٌ طليقٌ وكلامٌ لَيِّنُ[٦]

ولبعضهم:

خُذِ العفوَ وأمُرْ بعُرْفٍ كما ... أُمِرتَ وأعرِضْ عَنِ الجاهلين

ولِنْ في الكلامِ لكلِّ الأنامِ ... فمُسْتكبرٌ من ذوي الجاهِ لين[٧]

---

(١) في (ش): «فإن أساء بالقول».

(٢) أخرج وكيع في «الزهد» (٤٢٢)، وابن المبارك في «الزهد» (٣٧٣) عن عروة بن الزبير قال: مكتوب في الحكمة، وذكر «العطاء» بدل «الذهب والفضة».

(٣) كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري (٦٠٣٢)، ومسلم (٢٥٩١).

(٤) كما في حديث أنس رضي الله عنه عند الترمذي في «الشمائل» (٣٤٤)، وأبي دواد (٤١٧٩).

(٥) أخرجه البخاري (٣٥٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو، ومسلم (٢٣٢١). ولفظه: «لم يكن فاحشاً».

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٧٠٢)، وليس فيه ذكر أنه كان ينشد.
وانظر: «الكامل» للمبرد (٢/ ٥٥١). وهذا الرجز يذكر في أوله: «بُنَيَّ»، وليست في نسخ الكتاب، لكن الوزن لا يستقيم بدونها.

(٧) ذكرهما القيرواني في «زهر الآداب وثمار الألباب» (٢/ ٤٢٧)، ونسبهما إلى أبي الفتح البستي. ووقع عنده: «فمستحسن من ذوي الجاه لين»، وهو أولى وأنسب مما هنا.

وقد وصفَ اللهُ عزَّ وجلَّ في كتابه أهلَ الجنَّةِ بمعامَلَةِ الخَلْقِ بالإحسانِ بالمالِ واحتمالِ الأذى، فقال تعالى: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤] الآية. فالإنفاقُ في السَّراءِ والضَّراءِ يقتضِي: غايةَ الإحسانِ بالمالِ من الكثرةِ والقِلَّةِ، وكَظْمُ الغَيْظِ والعفوُ عن النَّاسِ يقتَضِي: عدمَ المقابلةِ على السُّوءِ بمِثْلِه[1] من قولٍ أو فعلٍ، وذلك يتضمنُ إلانةَ القولِ واجتنابَ الفُحْشِ والإغلاظِ في المَقالِ ولو كانَ مُبَاحاً، وهذا نهايةُ الإحسانِ، فلهذا قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

ومن هذا قولُ بعضِهم ـ وقد سُئِلَ عن حُسْنِ الخُلُق ـ فقال: بَذْلُ النَّدى وكَفُّ الأذى[2]، وهذا الوصفُ المذكورُ في القرآنِ أكملُ من هذا؛ لأنَّه وصفَهُم ببذْلِ النَّدى واحتمالِ الأذى، وحُسنُ الخُلُق يبلُغُ به العبدُ درجاتِ المجتهدين في العبادة، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ الرجلَ ليدرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصَّائِم النَّهارَ والقائمِ الليلَ»[3].

ورُؤي بعضُ السَّلَفِ في المنام فسُئِل عن بعضِ إخوانِهِ الصَّالحين، فقال: وأينَ ذاكَ؟ رُفِعَ في الجنَّةِ بحسُنِ خُلُقِه[4].

---

(١) في (ش): «المقابلة على السيئة من قول وفعل».

(٢) نسبه الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٠٤) إلى الحسن رحمه الله. وكذلك نسبه إليه ابنُ تيمية في «الإيمان» (ص ١٠).

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٥٥٣٧) وأبو داود (٤٧٦٥) من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها، وليس فيه لفظ النهار والليل.

(٤) لم أجده عند غير المصنف.

ومما يُنْدبُ إلى إلانةِ القولِ فيه: الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المُنْكرِ، وأنْ يكونَ برِفْقٍ كما قال تعالى في حَقِّ الكُفَّارِ: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

قال بعضُ السَّلفِ: ما أَغْضَبْتَ أحداً فقَبِلَ مِنْكَ[١].

وكانَ أصحابُ ابنِ مسعودٍ إذا رأوا قوماً على ما يُكْرَه يقولون لهم: مَهْلاً مَهْلاً، بارك اللهُ فيكم[٢].

ورأى بعضُ التابعين رجلاً واقفاً مع امرأةٍ، فقال لهما: إنَّ الله يراكما[٣]، سَترَنا اللهُ وإياكُما[٤].

ودخلَ[٥] الحسنُ إلى دَعْوة، فجِيءَ بآنيةٍ فِضَّةٍ فيها حَلواء، فأخذَ الحسنُ الحلواءَ فقَلَبَها على رَغيفٍ وأكلَ منها، فقال بعضُ من حَضَرَ: هذا نَهْيٌ في سُكُونٍ[٦].

ورأى الفُضَيلُ رجلاً يَعْبثُ في صَلاته فزَبَرهُ، فقال له الرجل: يا هذا يَنْبَغِي لمنْ يقومُ لله أنْ يكونَ ذليلاً! فبكى الفُضَيلُ، وقال له: صَدَقْتَ[٧].

قالَ شُعيبُ بنُ حَربٍ: ربَّما مَرَّ سفيانُ الثَّوريُّ بقومٍ يلعبونَ بالشَّطْرَنْجِ، فيقول: ما يصنَعُ هؤلاء؟ فيقالُ له: يا أبا عبدِ الله ينظرونَ في كتابٍ! فيُطأطِئ رأسَه، ويمضِي. وإنَّما يريُد بذلكَ ليُعْلَمَ أنه قدْ أنكَرَ[٨].

---

(١) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٦) من كلام سليمان التيمي.

(٢) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٥).

(٣) أشير في حاشية (ف) إلى نسخة: «يرانا».

(٤) في (ش): «سترنا الله وإياكم» أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٤٦)، والتابعي هو محمد بن المنكدر رحمه الله تعالى، ويذكر هذا عن غيره أيضاً.

(٥) في (ش): «ودعي».

(٦) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٥).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٦٤). ومعنى زَبَره: زَجره وانتهزه.

(٨) لم أظفر به عند غير المصنف.

وقال سفيانُ: لا يأمرُ بالمعروفِ ولا يَنْهى عن المنكرِ إلا من كانَ فيه خصالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بما يأمرُ، رفيقٌ بما يَنْهى، عَدْلٌ بما يأمرُ، عَدْلٌ بما يَنْهى، عالمٌ بما يأْمُرُ، عالمٌ بما يَنْهى[١].

وقال الإمامُ أحمدُ: الناسُ يحتاجُونَ إلى مُداراةٍ ورِفقٍ في الأمرِ بالمعروفِ بلا غِلْظة، إلا رجلاً مُعلناً بالفِسقِ فإنه لا حُرمةَ له[٢].

وكانَ كثيرٌ من السَّلَفِ لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينْهى عنِ المنكرِ إلا سِرًّا فيما بينَه وبين مَنْ يأمُرُه وينهاهُ.

وقالتْ أمُّ الدرداء: مَنْ وَعَظَ أخاهُ سِرًّا فقد زَانَه، ومَنْ وعظَه علانيةً فقد شَانه[٣].

وكذلك مقابلةُ الأذى بإلانةِ القولِ كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٢].

قال بعضُ السَّلَفِ: هو الرجلُ يسبُّه الرجلُ، فيقول له: إنْ كنتَ صادقاً فَغَفَر اللهُ لي، وإن كنتَ كاذِباً فَغَفَر اللهُ لَكَ[٤].

قال رجلٌ لسالمِ بن عبدِ الله ـ وقدْ زحمتْ راحلتُه راحلتَه في سَفَرٍ ـ: ما أُراكَ إلا رجلَ سُوءٍ! فقالَ له سالمٌ: ما أُراكَ أبعدتَ[٥].

---

(١) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٤).

(٢) أخرجه الخلال في «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (ص ٢٤).

(٣) أخرجه الخلال أيضاً (ص ٢٧ ـ ٢٨)، ووقع في (ش): «وقال أبو الدرداء...»!

(٤) روي عن أنس رضي الله عنه: أخرجه ابن أبي الدنيا في «مداراة الناس» (٤٩)، وهو عند ابن المنذر كما عزاه إليه السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ١١٥). ووقع في (ت): «فيغفر» في الأول، ووقع في (ف): «فيغفر» في الموضعين. وهو منقول أيضاً عن علي بن الحسين والشعبي رحمهما الله.

(٥) أورده ابن الجوزي في «صفة الصفوة» (١/ ٣٥٢).

وقالت امرأة لمالكِ بن دينارٍ: يا مُرائي! قال: متى عرفتِ اسمي؟ ما عرفه أحدٌ من أهلِ البَصرةِ غيرُك[١]!

ومرَّ بعضُهم على صبيانٍ يلعبونَ بجَوزٍ، فوطِئ على بعضِ الجوزِ بغيرِ اختيار فكسرَهُ، فقال له الصبيُّ: يا شيخَ النار! فجلسَ الشيخُ يبكي ويقول: ما عرفني غيرهُ[٢]

ومَرَّ بعضُهم مع أصحابهِ في طريقٍ، فرمَوا عليهم رماداً، فقال الشيخُ لأصحابه: مَنْ يستحقُّ النارَ فصالَحُوه على الرَّماد[٣]، يعني: فهو رابحٌ[٤].

ورأى جُنديٌّ إبراهيمَ بنَ أدهم خارجَ البلدِ، فسألهُ عن العمران، فأشارَ له إلى القبورِ، فضربَ رأسهَ، ومضى. فقيل له: إنه إبراهيمُ بنُ أدهم، فرجعَ يعتذرُ إليه. فقال له إبراهيمُ: الرأسُ الذي يحتاجُ إلى اعتذارِكَ تركتُهُ ببَلْخ[٥].

ومرَّ به جنديٌّ آخرُ وهو ينظُر بستاناً لقومٍ بأُجرة، فسأله أنْ يناولهُ من البستانِ شَيئاً، فلمْ يفعلْ قال: إنَّ أصحابهَ لمْ يأذنُوا لي في ذلك، فضربَ رأسَه، فجعلَ إبراهيمُ يطأطِئُ رأسَه، ويقول: اضربْ رأساً طالما عصى الله.

---

(١) أورده كذلك القشيري في «رسالته» (٢/ ٤٠٠).

وأخرجه أن رجلاً قال لمالك: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٩)، والخطيب البغدادي في «الزهد والرقائق» (٦٢) ومن طريقه: ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٦/ ٤١٩).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٩٠).

(٣) في (ف): «بالرماد».

(٤) ذكر ذلك فريد الدين العطار في «تذكرة الأولياء» (ص ٤٠٩) في ترجمة أبي عثمان الحيري عنه. توفي رحمه الله تعالى (سنة ٢٩٨هـ).

(٥) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص ١٨١). ووقع في (ش): «إعذارك».

وبَلْخ: مدينة من أمهات مدن خراسان، وتقع الآن في أفغانستان، وفي حاشية (ت): «هي مسكن إبراهيم بن أدهم».

من أجلك قد جعلتُ خدِّي أرضاً للشَّامت والحَسُود حتَّى ترضى[١]

الثالث من الدَّرجات: الصَّلاةُ بالليلِ والنَّاسُ نِيام، فالصلاةُ بالليلِ من مُوجباتِ الجنَّةِ كما سبق ذكرُه في غيرِ حديثٍ، وقد دَلَّ عليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩]، فوصفهم بالتَّيقُّظِ بالليل، والاستغفارِ بالأسحارِ، وبالإنفاقِ من أموالِهم.

كانَ بعضُ السَّلَفِ نائماً، فأتاه آتٍ في منامِه، فقال له: قُمْ فصَلِّ، أما علمتَ أنَّ مفاتيحَ الجنَّةِ مع أصحابِ اللَّيلِ؟! هم خُزَّانُها. هُمْ خُزَّانُها[٢].

وقيامُ الليلِ يوجِبُ علوَّ الدرجاتِ في الجنَّةِ قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، فجعلَ جزاءَه على التَّهَجُّدِ بالقرآنِ بالليلِ أَنْ يبعثَهُ المقامَ المحمودَ، وهو أعلى درجاتِهِ ﷺ.

قال عونُ بنُ عبدِ الله: إن الله يُدْخِلُ الجنَّةَ أقواماً[٣]، فيعطيْهِم حتى يَمَلُّوا[٤]،

---

(١) ذكر الخبر مع الشعر ابن الجوزي في «المدهش» (ص ١٨١).

وجاء هنا في حاشية (ش): «بلغ».

ولا يُفهم من هذا وأمثاله من الأخبار تسويغ الظلم لفاعله، وإنما هو من احتساب الأجر لمن وقع عليه الظلم، والتفاته عن ألم الظلم إلى الطمع بتكفير الخطايا في الدنيا، والتخفف بذلك من عذاب الآخرة. والله تعالى أعلم.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٤٨٨). والرائي لذلك كنيته أبو خزيمة، ونقله عن المصنف السفاريني في «كشف اللثام» (٣/ ٤٩).

(٣) في (ت) و(ف): «يُدخل الله الجنة...».

(٤) هكذا جاء رسمها في النسخ الخطية، وفي المطبوع في «مختصر قيام الليل» للمروزي: يثملوا! وهو بهذا الرسم لكن بالتاء في مطبوعتي «الزهد» و«الحلية»: «يَتَمَلَّوا» ولعله هو الصواب.

وفوقَهم ناسٌ في الدرجاتِ العُلى، فلما نَظَروا إليهم عَرَفُوهم، فقالوا: ربَّنا إخواننا كنَّا معهم، فبِمَ فضَّلتَهُم علينا؟ فيقول: هيهات هيهاتَ. إنَّهم كانوا يَجُوعُونَ حين تَشْبَعُون، ويَظمؤون حين تَرْوَوْن، ويقومُون حينَ تنامُون، ويشخصون حين تخفضون(١)(٢).

ويُوْجِبُ أيضاً مِنْ نعيمِ الجنَّةِ ما لم يطَّلعْ عليه العبادُ في الدنيا: قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧].

وفي «الصَّحِيحِ» عن النبيِّ ﷺ قال: «يقول اللهُ عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادي الصالحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشرٍ، اقرؤوا إنْ شئتمْ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧](٣).

قالَ بعضُ السَّلَفِ: أخفَوا للهِ عملاً، فأخفى اللهُ لهمُ الجزاءَ، فلو قَدْ قدمُوا عليه لأقرَّ(٤) تلكَ الأعينَ عندَه(٥).

ومما يجزي به المتهجدينَ في الليل: كثرةُ الأزواجِ من الحُورِ العِيْن في الجنَّةِ،

---

(١) المثبت من (ت)، وفي (ف): «ويستحفون»، وفي (ش): «تحفظون» وكلاهما تصحيف.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٩٩)، وهو في «مختصر قيام الليل ورمضان والوتر» لمحمد بن نصر المروزي، للمقريزي (ص ٥٩)، و«الحلية» لأبي نُعيم (٤/ ٢٤٧). والأثر مقطوع.

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٨٠) ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) في (ف): «أخفوا الله العمل»، وفي (ف): «لأقر لهم».

(٥) هو تتمة للحديث السابق. قال أبو صخر ـ أحد رواته ـ فأخبرتها محمد بن كعب القرظي، فذكره... أخرجه محمد بن نصر المروزي في «قيام الليل» (مختصره ـ ص ٣٧)، وأبو نعيم في «صفة الجنة» (١٢٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٦٣)، وقال: صحيح الإسناد. والروياني في «مسنده» (١٠٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٥١٤) وابن عساكر في «معجم الشيوخ» (٨٨٥).

فإنَّ المُتَهَجِّدَ قدْ تركَ لذَّةَ النومِ باللَّيل ولذَّةَ التمتُّعِ بأزواجِه؛ طلباً لما عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، فعوَّضَهُ الله تعالى خيراً مما تركَه، وهو الحورُ العِينُ في الجنَّة، ومن هنا قال بعضهم: طولُ التَّهجُّدِ مهورُ الحورِ العِيْنِ في الجنَّةِ[١].

كانَ بعضُ السَّلَفِ يُحيى الليلَ صلاةً[٢]، ففترَ عن ذلكَ، فأتاهُ آتٍ في منامِه، فقال له: قد كنتَ يا فلانُ تَدْأبُ في الخِطْبَة، فما الذي قَصَّرَ بكَ عن ذلك؟ قال: وما ذلك؟ قالَ: كنتَ تقومُ من الليلِ، أوما علمتَ أنَّ المتهجِّدَ إذا قامَ إلى تَهَجُّدِهِ[٣] قالت الملائكة: قد قامَ الخاطِبُ إلى خِطْبَتِه[٤].

ورأى بعضُهم في منامه امرأةً لا تُشْبِهُ نساءَ الدُّنيا، فقال لها: مَنْ أَنْتِ؟ قالت: حوراءُ أمةُ الله، فقال لها: زَوِّجيني[٥] نفسَكِ. قالت: اخطُبني إلى سيِّدي، وأَمهِرْني. قال: وما مَهْرك؟ قالت: طولُ التَّهَجُّدِ[٦].

نامَ بعضُ المُتهجِّدينَ ذاتَ ليلةٍ فرأى في مَنامِهِ حوراءَ تُنْشِدُه:

أتخطُبُ مِثْلِي وعَنّي تَنَامْ ... ونُومُ المحبِّينَ عَنَّا[٧] حَرَامْ

لأنَّا خُلِقْنَا لكلِّ امرئٍ ... كثيرِ الصلاةِ براهُ الصِّيامْ[٨]

---

(١) كما سيأتي بَعْدَ خَبر.

(٢) في (ش): «في صلاة».

(٣) في (ش): «التهجد».

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٥٣).

(٥) في (ت) و(ف): «زوَّجتيني؟».

(٦) ذكره أزهر بن ثابت التغلبي عن والده، كما في «مختصر قيام الليل» للمروزي (ص ١٠٥).

(٧) في (ت) و(ف): «عني».

(٨) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٣٢٦) في ضمن قصة. والأبيات من البحر السريع. ومعنى «براه الصيام»؛ أي: نحت بدَنه كما يُبرى العود.

وكانَ لبعضِ السَّلَفِ وِرْدٌ من اللَّيل، فنامَ عنْهُ ليلةً فرأى في منامِهِ جاريةً، كأنَّ وجهَهَا القَمَرُ، ومعها رَقٌّ فيه كتابٌ مكتوبٌ، فقالت: أتقرأُ؟ قال: نعم، فأعطته إيَّاه، ففتحه، فإذا فيه مكتوب:

أَ ألهتْكَ اللَّذائذُ والأماني ... عن الفِردوسِ والظُّلَلِ الدَّواني

و[1] لذةُ نَومَةٍ عن خيرِ عَيْشٍ ... مَعَ الخيراتِ في غُرَفِ الجِنَانِ

تعيشُ مخلَّداً لا موتَ فيها ... وتَنْعَمُ في الجِنَانِ مع الحِسَانِ

تيقَّظْ من مَنامِكَ إنَّ خَيْراً ... مِنَ النومِ التهجُّدُ بالقُران

فاستيقظ، قال: فوالله ما ذكرتُها إلا ذهبَ عني النومُ[2].

كانَ بعضُ الصَّالحينَ له وِردٌ، فنام ليلةً عنه، فوقفَ عليه فتى في منامه، فقال له بصوت محزون:

تَيَقَّظْ لساعاتٍ[3] من اللّيلِ يا فتى ... لعلَّك تحظَى في الجنانِ بحُورِهِ

---

(١) سقط البيت الأول من النسخة (ش) وجاء الثاني فيه هكذا:

أألهتْكَ لذة نومة عن خير عيش ... مع الخيرات في غرف الجنان

(٢) ذُكرت هذه القصة بصيغ متعددة، وأقربها ما في «فضل قيام الليل والتهجد» للآجري (١١٥)، و«التهجد وقيام الليل» لابن أبي الدنيا (٢٥٠)، «والمنامات» (٢٣٢) و«مختصر قيام الليل» للمروزي (ص ١٠٥).

وذكرها أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٥) مسندة إلى أبي سليمان الداراني بنحوها. وأوردها الغزالي في «الإحياء» (٢/ ٢٥٣) وعزاها إلى مالك بن دينار. والأبيات من البحر الوافر.

(٣) في (ت) و(ش): «ساعات».

فَتَنْعَمَ في دارٍ يدومُ نعيمُها محمدُ فيها والخليل[١] يزورُها
فقُمْ فتيقَّظْ ساعةً بعدَ ساعةٍ عساكَ تُقَضِّي ما بَقِيْ مِنْ مُهورِها[٢]

كانَ بعضُ السَّلفِ الصالحين كثيرَ التَّعَبُّدِ[٣]، وبَكى شَوقاً إلى اللهِ تعالى ستينَ سنةً، فرأى في منامه كأنَّه على ضِفَّةِ نَهْرٍ يجري بالمسكِ، حافتاه شجرُ لؤلؤٍ ونَبْتٌ من قضبانِ الذَّهبِ، فإذا بِجَوَارٍ[٤] مُزَيَّناتٍ يقلنَ بصوتٍ واحدٍ: سبحانَ المُسَبَّحِ بكلِّ لسانٍ، سبحانَه. سبحانَ المُوحَّد[٥] بكلِّ مكانٍ، سبحانَه. سبحانَ الدَّائمِ في كلِّ الأزمانِ، سبحانه. فقال لهن: ما تصنعنَ هاهنا؟ فقلن:

ذَرانا إلهُ النَّاسِ ربُّ محمدٍ لقومٍ على الأقدامِ بالليلِ قُوَّمُ
يناجُونَ ربَّ العالمينَ إلههم وتَسْرِي هموُمُ القَومِ والنَّاسُ نُوَّمُ

فقال: بَخٍ بَخٍ لهؤلاء، مَنْ هم؟ لقد أقرَّ اللهُ أعينَهم بِكُنَّ فقلن: أوما تعرفُهم؟! قال: لا. فقلن: بلى هؤلاءِ المتهجِّدونَ أصحابُ القرآنِ والسَّهَرِ[٦].

وكانَ بعضُ الصَّالحين ربَّما نامَ في تهجُّده، فتوقظه الحوراءُ في[٧] منامه، فيستيقظُ بإيقاظها.

---

(١) في (ت) و(ف): «والجليل»، وفي «فضل قيام الليل»: «والخليل بدورها».

(٢) أخرجه الآجري في «فضل قيام الليل» (٢٦).

(٣) في (ف): «التهجد» وأشار في الحاشية إلى نسخة موافقة للمثبت.

(٤) في (ت) و(ف): «بحُور».

(٥) هكذا في نسخنا، وفي مطبوعات مصادر التخريج: «الموجود». ويستقيم معناه أن يكون: الموجود بعلمه بكل مكان.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٢٩٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤٤). والرائي هو مطهَّر السعدي رحمه الله تعالى. والأبيات من البحر الطويل.

(٧) في (ت) و(ف): «من».

ورُوِيَ عن أبي سُليمانَ الدَّاراني أنَّه قالَ: ذهبَ بي النومُ ذات ليلةٍ في صلاتي، فإذا بها ـ يعني الحوراء ـ تنبِّهُني وتقول: يا أبا سليمان! أترقدُ وأنا أُرَبَّى لكَ في الخُدورِ[١] منذ خمسمائة سنة[٢].

وفي رواية عنه: أنَّه نامَ ليلةً في سُجوده. قال: فإذا بها قَدْ ركضَتْني برِجْلِها، وقالت: حبيبي! أترقدُ عيناكَ، والمَلِكُ يقظان ينظرُ إلى المتهجِّدينَ في تهجُّدِهم؟ بؤساً لعَينٍ آثرتْ لذَّةَ نومٍ على مناجاةِ العزيزِ. قُمْ فقد دنا الفراغُ، ولقيَ المحبونَ بعضُهم بعضاً، فما هذا الرقاد؟ حبيبي وقرة عيني! أترقدُ عيناكَ، وأنا أُرَبَّى لكَ في الخدورِ منذُ خمسمائة عام؟ فوثبَ فَزِعاً، وقد عرقَ من توبيخِها له. قال: وإنَّ حلاوةَ منطِقِها لفي سَمْعي وقَلْبي[٣].

وكانَ أبو سليمان يقول: أهلُ الليل في لَيْلِهِمْ ألذُّ مِنْ أهلِ اللَّهوِ في لَهْوهم، ولولا الليل ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنيا[٤].

وقالَ يزيدُ الرَّقاشيُّ لحبيبٍ العَجَميِّ: ما أعلمُ شَيئاً أقرَّ لعيونِ العابدين في الدُّنيا من التهجُّدِ في ظُلمةِ الليلِ، وما أعلمُ شيئاً من نَعِيم الجِنَان وسُرورها ألذَّ عندَ العابدين، ولا أقر لعيونهم من النَّظَرِ إلى ذي الكِبرياءِ العظيم، إذا رُفِعتْ تلكَ الحُجُبُ وتجلَّى لهمُ الكريمُ. فصاحَ حبيبٌ عند ذلكَ وخَرَّ مَغْشِيًّا عليه[٥].

---

(١) في (ش): «الخِدْر».

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٠٢، ٢٩٣٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٤٧).

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٢٧٥)، والخطيب في «المنتخب من كتاب الزهد والرقائق» (٦٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٤/ ١٤٦).

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٣٤٨).

وكانَ السَّريُّ يقولُ: رأيتُ الفوائدَ تَرِدُ في ظَلامِ اللَّيل[١].

وقالَ أبو سليمان: إذا جَنَّ الليلُ وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه: افترشَ أهلُ المحبَّةِ أقدامَهم وجَرَتْ دموعُهم على خُدودِهم أشرفَ الجليلُ جل جلاله فنادى يا جبريلُ بعيني من تلذَّذَ بكلامِي، واستروحَ إلى مُناجاتي. نادِ فيهم يا جبريلُ: ما هذا البكاءُ، هل رأيتم حَبيباً يعذِّبُ أحبَّاءَه، أم كيفَ يجمُلُ بي أن أُعذِّبَ قوماً إذا جنَّهم الليلُ تملَّقُوني، فبي حلفتُ إذا قدموا عليَّ يومَ القيامة لأكشِفَنَّ لهم عن وَجهي ينظرُون إليَّ وأنظرُ إليهم[٢].

وسُئِلَ الحسنُ البصريُّ: لِمَ كان المتهجِّدونَ أحسنَ النَّاسِ وُجوهاً؟ قال: لأنَّهم خَلَوا بالرحمنِ فألبَسَهُم نُوراً من نُوره[٣].

رأت امرأةٌ من الصَّالحاتِ في مَنامها كأنَّ حُللاً قد فُرِّقَتْ على أهلِ مسجدِ محمد ابن جُحادةَ، فلما انتهى الذي يُفَرِّقها إليه؛ دعا بسَفَطٍ مختومٍ فأخرجَ منه حُلَّةً صفراءَ. قالت: فلم يَقُم لها بصري، فكساه إيَّاها، وقال: هذه لكَ بطولِ السَّهَر. قالت: فوالله لقدْ كنتُ أراه ـ تعني محمد بنَ جُحَادة ـ بعدَ ذلكَ فأتخايلها عليه ـ تعني تلكَ الحُلَّة ـ[٤].

قال كُرْزُ بنُ وَبْرَةَ: بلغني أن كَعبًا قال: إنَّ الملائكةَ ينظرونَ من السماءِ إلى الذين يُصَلُّون[٥] بالليل، كما تنظرون أنتم إلى نجومِ السَّماءِ[٦].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١١٩، ١٢١).

(٢) أخرجه مطولًا بأكثر من هذا: أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ١٦). وأخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» مختصراً (٣٤/ ١٣٨).

(٣) أخرجه الآجري في «فضل قيام الليل» (٨). وهو في مختصر «قيام الليل» للمروزي (ص ٥٨).

(٤) أخرجه ابن الجوزي في «المنتظم» (٧/ ٢٨٣) في ترجمة محمد بن جحادة، وذكره في «صفة الصفوة» (٢/ ٧٢).

(٥) في (ش): «يتهجدون» وفي حاشيتها نسخة موافقة لما أثبتناه.

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٣٦٢)، ومن طريقه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٤٣).

يـا نفـسُ فـازَ الصَّالحـون بالتُّقـى ... وأبـصَروا الحـقَّ وقلبـي قـدْ عمـي

يـا حُسْـنَهم والليـلُ قـدْ جنَّهـم ... ونُـورهُـم يفـوقُ نـورَ الأنجُـم

ترنَّمـوا بـالـذِّكـرِ فـي لَيْلِهـم ... فعـيشُـهُـم قـدْ طـابَ بالتَّرنُّـم

قلوبُهـم للذِّكـرِ قـد تفرَّغَـتْ ... دمُـوعُـهـم كـلُـؤلـؤٍ منتَظِـمِ

أسـحارهم[١] بهـم لهـم قـدْ أشـرَقَتْ ... وخِلَـعُ الغُفْـرانِ خيـرُ القِسَـمِ[٢]

في بعض الآثار يقولُ اللهُ عز وجل كلَّ ليلةٍ: يا جبريلُ أقمْ فُلاناً وأنمْ فلاناً[٣].

قامَ بعضُ الصَّالحين في ليلةٍ باردةٍ، وكان عليه خُلْقان[٤] رثَّـة، فضربَه البردُ، فبكى فسمعَ هاتفاً يقول: أقمناكَ وأنمناهم ثم تبكي علينا[٥].

تـنـبَّهُوا أيـا أُهـيـلَ ودِّي[٦] ... كم ذا الكَرى؟ هَبَّ نسيمُ نَجْدِ[٧]

كـم بين خَـالٍ وجَـوٍ وسَـاهِـرٍ ... وراقـدٍ وكـاتـمٍ ومُبْدي[٨]

---

(١) في (ف): «أنوارهم».

(٢) الأبيات بعض قصيدة لابن الجوزي أنشدها في «المدهش» (ص ٥١٤). وكتب أحدهم في حاشية (ف): «مهم جداً».

(٣) لم أجده إلا في مواعظ الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله تعالى «جلاء الخواطر» (ص ٤٧، ٧٥) منسوباً إلى النبي ﷺ بغيره سند.

(٤) في (ت) و(ف): «أخلاق». وثوب خَلَق: أي بالٍ، والجمع خُلْقان.

(٥) أخرجه الآجري في «فضل قيام الليل» (٣٠)، وأبو نُعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٥) من كلام داود بن رشيد.

(٦) جاء هذا الشطر في (ش): «يا أهل وادي المنحى» وفي أصل القصيدة: «تنبَّهي يا عَذَباتِ الرندِ».

(٧) في (ش): «وجدي».

(٨) الأبيات من قصيدة لأبي الغنائم محمد بن علي بن فارس الواسطي، ابن المعلم، المتوفى =

قيل لابن مسعود: ما نستطيعُ قيامَ الليل! قال: أبعدَتْكم ذنوبُكم[١].

وقيل للحسن: أَعجَزَنا قيامُ الليل قال: قيَّدتكم خطاياكُم[٢].

إنما يؤهِّلُ الملوكُ للخلوةِ بهم ومخاطبتِهم مَنْ يُخْلِصُ في وِدادهم ومعاملتهم، فأمَّا مَنْ كان من أهل مُخالفتهم فلا يرتَضُونَه[٣] لذلك.

الليلُ لي ولأحبابي أُحادِثُهم ... قَد اصطَفَيْتُهم كي يَسْمَعوا ويَعُوا

لَهُم قلوبٌ بأسراري لها مُلِئَتْ ... على وِدادي وإرشادِي لهم طُبِعوا

قد أثمرتْ شجرات الفهمِ عندَهُمُ ... فما جَنَوا إذ جنوا مما به ارتَفَعُوا

سَرَوا فما وَهَنُوا عَجْزاً ولا[٤] ضَعُفُوا ... وواصَلوا حَبْلَ تقريبي فما انقَطَعُوا[٥]

* * *

= (سنة ٥٩٢هـ) رحمه الله. انظر: «المختصر المحتاج إليه» لابن الدبيثي (١/ ٩٥ ـ ٩٦)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٤٢/ ١٠٧).

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التهجد وقيام الليل» (٣٥٩) بلفظ: «أقعدتكم ذنوبكم».

(٢) لم أجده عن الحسن رحمه الله.

وفي حاشية (ف) تعليق من أحدهم: «كما قُيِّدَ الأُسَراء في أسر عدوٍّ، وأسرُ ـ كذا ولعله: أسير ـ النفس، كذلك مقيد بالهوى وحب الدنيا».

(٣) في (ش): «يرضونه».

(٤) في (ش): «وما». وأشار في الحاشية إلى نسخة توافق ما أثبتناه.

(٥) ذكر المصنف هذه الأبيات أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٩٥)، وفي حاشية (ت): «بلغ من أول الكراس».

الفصلُ الثّالث

في ذكرِ الدّعواتِ المذكورة في هذا الحديث

وهي: اللَّهمَّ إنِّي أسألُك فعلَ الخيراتِ وتركَ المنكراتِ وحبَّ المساكين، وأنْ تغفرَ لي وترحَمَني، وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضني إليكَ غيرَ مفتون، وأسألُكَ حُبَّكَ وحُبَّ من يُحِبُّكَ وحُبَّ العملِ الذي يُبَلِّغُني حُبَّك.

فقال النبيُّ ﷺ: «تعلَّموهُنَّ وادرسُوهنَّ فإنَّهُنَّ حقٌّ».

هذا دعاءٌ عظيمٌ من أجمعِ الأدعيةِ وأكمَلِها.

فقوله ﷺ: «أسألُكَ فعلَ الخيراتِ وتَركَ المنكراتِ»: يتضمنُ طلبَ كلِّ خيرٍ وتركَ كلِّ شر، فإنَّ الخيراتِ تجمعُ كلَّ ما يحبُّه الله تعالى ويقرِّبُ منه من الأعمال والأقوال، من الواجبات والمستحبات. والمنكرات تشمل كلَّ ما يكرهُهُ اللهُ تعالى ويباعِدُ منه من الأقوال والأعمال، فمن حَصَلَ له هذا المطلوب: حصل له خيرُ الدنيا والآخرة.

وقَدْ كانَ النبيُّ ﷺ يستحبُّ مثلَ هذه الأدعيةِ الجامعةِ. قالت عائشة: كان النبيُّ ﷺ يعجِبُه الجوامعُ من الدعاءِ ويَدَعُ ما بين ذلك. خَرَّجهُ أبو داود[1].

وقوله: «وحُبَّ المساكين» هذا قد يقال إنَّه من جملةِ فعلِ الخيراتِ، وإنما أفردهُ بالذكرِ لشرفهِ وقوَّةِ الاهتمام به، كما أفردَ أيضاً ذكرَ حُبِّ الله تعالى وحبِّ من يحبُّه وحبِّ عملٍ يُبَلِّغهُ إلى حُبِّه، وذلك أصلُ فعلِ الخيراتِ كلِّها.

وقد يقال: إنه طلبٌ من اللهِ عزَّ وجل أنْ يرزقَهُ أعمالَ الطَّاعاتِ بالجوارحِ، وأنْ يرزقَه ما يوجبُ له ذلك، وتركَ المنكراتِ بالجوارحِ، وأن يرزقَه ما يُوجِبُ له ذلك؛

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٧).

وهو حُبُّه وحبُّ من يحبُّه وحبُّ عملٍ يُبَلِّغهُ حُبَّه. فهذه المحبةُ بالقلبِ موجبةٌ لفعلِ الخيراتِ بالجوارحِ ولترك المنكراتِ بالجوارحِ، وسأل الله تَعالى أَنْ يرزقَهُ المحبةَ فيه. فقد تضمَّنَ هذا الدعاءُ: سؤالَ حُبِّ الله عزَّ وجلَّ وحبِّ أحبابهِ وحبِّ الأعمالِ التي تُقَرِّبُ من حُبِّهِ والحُبِّ فيه، وذلك مقتضٍ لفعلِ الخيراتِ كلِّها، وتَضَمَّن تركَ المنكرات والسلامةَ من الفتن وذلك يتضمن اجتناب الشر كله فجمع هذا الدعاء طلبَ خير الدنيا.

وتضمن: سؤالَ المغفرةِ والرَّحمةِ، وذلك يجمعُ خيرَ الآخرةِ كلَّه، فجَمَعَ هذا الدعاءُ خيرَ الدنيا والآخرةِ.

والمقصود: أن حُبَّ المساكينِ أصلُ الحبِّ في الله تعالى؛ لأنَّ المساكين ليسَ عندَهُم من الدنيا ما يُوجِبُ محبَّتَهُم لأجله، فلا يُحَبُّونَ إلا للهِ عزَّ وجلَّ، والحبُّ في اللهِ من أوثقِ عُرى الإيمان[1]، ومن علامات ذَوْقِ حلاوةِ الإيمان[2]، وهو صريحُ الإيمان[3]، وهو أفضلُ الإيمان[4]، وهذا كلُّه مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ أنه وصفَ به الحبَّ في الله تعالى.

ورُوي عن ابن عباسٍ أنه قال: به تُنالُ وِلايةُ الله عزَّ وجلَّ، وبه يُوجدُ طعمُ الإيمانِ[5].

وحبُّ المساكين قد وصَّى به النبيُّ ﷺ غيرَ واحدٍ من أصحابهِ:

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٢٤) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) كما في حديث أنس رضي الله عنه: «ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان»... الحديث عند البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

(٣) أخرج أحمد (١٥٥٤٩) من حديث عمرو بن الجموح: «لا يجد العبد صريح الإيمان حتى يحب لله تعالى...».

(٤) أخرج أحمد (٢٢١٣٠، ٢٢١٣٢) من حديث معاذ بن أنس سؤاله النبي ﷺ عن أفضل الإيمان.

(٥) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (٣٥٣).

قال أبو ذرٍّ: وَصَّاني[١] رسولُ الله ﷺ أن أُحِبَّ المساكين وأن أدنُوَ منهُم. خَرَّجه الإمامُ أحمد[٢].

وخَرَّجَ الترمذيُّ عن عائشةَ أن النبيَّ ﷺ قال لها: «يا عائشةُ أحبِّي المساكينَ وقَرِّبيهِمْ، فإنَّ اللهَ يقرِّبُكِ يومَ القيامَةِ»[٣].

ويُروى أنَّ داودَ عليه السلام كان يُجالسُ المساكين ويقول: يا رب مسكينٌ بين مساكين[٤].

ولم يزل السَّلَفُ الصَّالحُ يوصونَ بحُبِّ المساكين:

كتبَ سفيانُ الثوريُّ إلى بعضِ إخوانه[٥]: عليكَ بالفقراءِ والمساكينِ والدُّنوِّ منهم[٦]؛ فإنَّ رسولَ الله ﷺ كان يسألُ ربَّه حُبَّ المساكين[٧].

وحُبُّ المساكين مُسْتَلزِمٌ لإخلاصِ العملِ لله تعالى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ الذي لا تثبتُ الأعمالُ إلا عليه، فإنَّ حُبَّ المساكينِ يقتضي إسداءَ النَّفع إليهم بما يُمْكِنُ من منافعِ الدِّينِ والدُّنيا، فإذا حَصَلَ إسداءُ النَّفْعِ إليهم حُبّاً لهم والإحسانُ إليهم كان هذا العمل خالصاً.

---

(١) في (ت) و(ف): «أبو الدرداء: أوصاني»، وهو تصحيف.

(٢) أخرج الإمام أحمد (٢١٤١٥) من حديث أبي ذر قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: «أمرني بحب المساكين، والدنو منهم...» الحديث.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) في آخر حديثٍ لأنس رضي الله عنه، وقال: «هذا حديث غريب».

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «الزهد» (٣٧٩)، وابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (١٠٨).

(٥) في (ف): «أصحابه» وأشار في حاشيتها إلى نسخة توافق المثبت.

(٦) أوصى سفيان بذلك عبَّاد بن عباد. أخرجه ابن أبي حاتم في «تقدمة المعرفة لكتاب الجرح والتعديل» (ص ١٠٧).

(٧) وذلك في الحديث الذي يشرحه الحافظ ابن رجب رحمه الله في هذا الكتاب.

وقد دلَّ القرآنُ على ذلك، قال عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٨ ـ ٩]، وقال عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٢٨].

قال سعدُ بن أبي وقَّاص: نزلتْ هذه الآيةُ في سِتَّة: فيَّ وفي ابنِ مسعودٍ وصُهيبٍ وعمَّارٍ والمقدادِ وبلالٍ، قالت قريش لرسول الله ﷺ: إنَّا لا نَرْضى أن نكون أتباعاً لهم؛ فاطرُدْهم عنك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢] الآية[1].

وقال خَبَّابُ بن الأرتّ في هذه الآية: جاء الأقرعُ بن حابس وعُيينةُ بن حِصْن فوجدوا رسولَ الله ﷺ مع صُهيب وعمَّار وبلال وخبَّاب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين؛ فلمَّا رأوهم حولَ النبيِّ ﷺ حَقَروهم، فأتوه فخَلَوا به، وقالوا: إنَّا نريُد أن تجعلَ لنا مِنْكَ مجلساً تَعْرِفُ لنا به العربُ فضلَنا، فإنَّ وفود[2] العربِ تأتيك فنستحيي أن ترانا العربُ مع هذه الأعبُدِ، فإذا نحن جئناكَ فأقِمْهُم عنك، فإذا نحن فرغْنَا فاقعد معهم إنْ شِئت. قال: نعم. قالوا فاكتبْ لنا عليكَ كتاباً. قال: فدعا بصَحِيفة، ودعا علياً ليكتبَ، ونحنُ قعودٌ في ناحيةٍ[3] فنزلَ جبريلُ عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤١٣) مختصراً، وانظر «سنن ابن ماجه» (٤١٢٨)، و«الدر المنثور» للسيوطي (٦/ ٥٧).

(٢) في (ت) و(ف): «وجوه».

(٣) في (ف) زيادة: «المسجد» وفوقها ضبة علامة إلغاء، وليست في ابن ماجه ولا الطبري.

السَّلامُ فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] ثم ذكرَ الأقرعَ بن حابسٍ وعُيينة بن حِصْن فقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] ثم قال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] قال: فدنَونا منه، حتى وضعنَا رُكَبنا على رُكبتيه، وكان رسولُ الله ﷺ يجلسُ معنا، فإذا أرادَ أن يقومَ قام وتركَنا، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨] ولا تجالس الأشرافَ ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨] يعني عيينة والأقرع. قال خَبَّاب: فكنا نقعُدُ مع النبيِّ ﷺ، فإذا بلغنَا الساعةَ التي يقومُ فيها قُمنا وتركناه حتَّى يقومَ. خَرَّجه ابنُ ماجه وغيرُه[١].

وكانَ النبي ﷺ يعُودُ المرضى من مساكينِ أهلِ المدينةِ ويُشَيِّعُ جنائزهم[٢]، وكان لا يأنفُ أن يمشيَ مع الأَرملةِ[٣] والمسكين حتى يقضيَ حاجَتَهما[٤]، وعلى هذا الهدي كانَ أصحابُه مِنْ بَعدِه والتابعون لهم بإحسان.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٢٧)، والطبري (٩/ ٢٥٩). وفي حاشية (ش): «بلغ مقابلة».

(٢) كما في حديث أبي أمامة بن سهل بن حنيف: أن مسكينة مرضت... الحديث، عند الشافعي في «مسنده» (٥٧٦ بترتيب السندي).

وهو بلفظ: «كان رسول الله ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم» عند الحاكم (٢/ ٤٦٦) وقال: «صحيح الإسناد» من حديث سهل بن حنيف رضي الله عنه.

(٣) في (ت) و(ف): «الأمة». وكتب في حاشيتهما ما يوافق المثبت.

(٤) أخرجه الدارمي (٧٥)، والنسائي (١٤١٤). من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

فيُروى[١] عن أبي هُريرة قال: كان جعفرُ بن أبي طالبٍ يُحِبُّ المساكينَ، ويجلِسُ إليهم، ويحدِّثُهم ويُحدِّثونه، وكان النبيُّ ﷺ يُكَنِّيه أبا المساكين[٢].

وفي رواية: أنه كان يُطعِمُهم، وربما أخرجَ لهم عُكَّةً فيها العَسلُ[٣] فشَقُّوها ولَعِقُوها[٤].

وكانت زينبُ بنتُ خُزيمة أمُّ المؤمنين تُسمَّى أُمَّ المَسَاكين؛ لكثرة إحسانِها إليهم، وتوفيت في حياة النبيِّ ﷺ[٥].

وقال ضِرار بن مُرَّة في وصف عليِّ بن أبي طالبٍ في أيام خِلافته: كان يُعَظِّمُ أهلَ الدينِ، ويحبُّ المساكينَ[٦]، ومَرَّ ابنُه الحسنُ رضي الله عنهما على مساكين يأكلونَ فدَعَوه، فأجابهم، وأكل معهم، وتلا ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣] ثم دعاهُم إلى منزلِه، فأطعَمَهم وأكرمَهُم[٧].

وكانَ ابنُ عُمرَ رضي الله عنهما لا يأكلُ غالباً إلا مع المساكينِ، وكان يقول: لعلَّ بعضَ هؤلاء أن يكون مَلِكاً يومَ القيامة[٨].

وجاءَ مسكينٌ أعمى إلى ابنِ مسعودٍ وقد ازدحمَ النَّاسُ عندَه فناداه:

---

(١) في (ش): «وروي».

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٦٦) وقال: حديث غريب، وابن ماجه (٤١٢٥).

(٣) في (ت) و(ف): «عكة العسل».

(٤) أخرجه البخاري (٣٧٠٨). العكة: الظرف الذي يكون فيه السَّمن.

(٥) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (١٠/ ١١١).

(٦) ترتيب «الأمالي الخميسية» لابن الشجري (١/ ١٨٧).

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (١١٥).

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا (٥٣) وفيه: «كان يدعوا المجذومين فيأكل معهم...».

يـا أبا عبد الرحمن أدنيـتَ أربابَ[١] الخَـزِّ واليمنيَّة، وأقصَيتني لأجل أنِّي مسـكين؟ فقـال له: ادنُهْ، فلـم يزل يُدنيه حتى أجلسَـه إلى جانِبـهِ أو بقربه[٢].

وكانَ مُطَرِّفُ بنُ عبد الله يلبَسُ الثِّيابَ الحسنةَ، ثم يأتي المساكين ويُجالِسُهم[٣].

وكانَ سفيانُ الثَّوريُّ يعظِّمُ المساكينَ، ويجفُو أهلَ الدُّنيا، فكانَ الفقراءُ في مجلِسِه هم الأغنياءُ والأغنياءُ همُ الفقراءُ[٤].

وقـال سـليمان التيمـي: كُنَّـا إذا طَلَبنـا عليـةَ أصحابِنـا وجدناهم عنـد الفقراء والمسـاكين[٥].

وقال الفضيلُ: مَنْ أرادَ عِزَّ الآخرةِ فليكن مجلسُهُ مع المساكين[٦].

ومن فضائل المساكين: أنهم أكثرُ أهلِ الجنَّةِ كما قال النبي ﷺ: «قمتُ على بابِ الجنَّةِ فإذا عامة مَنْ دخَلَها المساكين»[٧].

---

(١) في (ف): «أصحاب» مضبباً عليها وكتب في الحاشية ما يوافق المثبت.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٠٢).

والرجل هو زاذان أبو عمرو، وعنده: من أجل أني رجل أعجمي أدنيت هؤلاء... أصحاب الخز واليمنية: يعني أصحاب الثياب الفاخرة من الخز وبرود اليمن. ووقع في (ف): «جانبه وبقربه».

(٣) انظر: «الزهد» لأحمد بن حنبل (١٣٧١)، فعل ذلك، وقد مات ابنه تصبراً واحتساباً.

(٤) ذكر نحو ذلك الغزالي في «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥١٧)، (٥/ ٣٨٥). وفي «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٦/ ٣٦٥) قال قبيصة: «ما رأيت الأغنياء أذل منهم في مجلس سفيان الثوري، ولا الفقراء أعزَّ منهم في مجلس سفيان الثوري».

(٥) لم أجده.

(٦) أخرجه ابن سمعون الواعظ في «أماليه» (١٢٣).

(٧) أخرجه البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

وقال ﷺ: «تحاجَّت الجنةُ والنارُ، فقالت الجنَّةُ: لا يدخُلني إلا الضُّعفاءُ والمساكين»(١).

وسُئِل النبيُّ ﷺ عن أهل الجنة، فقال: «كلُّ ضَعِيفٍ مُتَضعِّفٍ»(٢).

وهم أوَّلُ النَّاسِ دخولاً الجنةَ كما صح عنه ﷺ: أنَّ الفقراءَ يسبقِونَ الأغنياءَ إلى الجنَّة بأربعينَ عاماً(٣).

وفي روايةٍ: أنَّهم يدخُلُونَ الجنَّةَ بنصفِ يومٍ وهو خمسمائة سَنَة(٤).

وهُمْ أوَّلُ الناسِ إجازةً على الصراطِ كما صحَّ عنهُ ﷺ: أنه سُئِلَ عن أوَّل الناسِ إجازةً على الصراط فقال: «فقراءُ المهاجرين»(٥).

وهم أول الناس وروداً عليه الحوض، كما قال ﷺ: «أولُ النَّاسِ وروداً عليَّ الحوضَ(٦) فقراءُ المهاجرين، الدنسةُ رؤوسهم، الشَّعِثَةُ ثيابهم(٧)، الذين لا يُنْكحون المتنعمات، ولا تفتَّح لهم السُّدَدُ»(٨).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ موافق لمسلم.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه.

(٣) الحديث في فقراء المهاجرين. أخرجه مسلم (٢٩٧٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه الإمام أحمد (١٠٦٥٤) والترمذي (٢٣٥٣) وقال: «حسن صحيح» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وروي عن غيره من الصحابة رضي الله عنهم.

ويجمع بين الحديثين بأن الاختلاف باختلاف مراتب أشخاص الفقراء في حال صبرهم ورضاهم وشكرهم. وانظر: «مرقاة المفاتيح» لملا علي القاري (٥٢٤٣).

(٥) أخرجه مسلم (٣١٥) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٦) في (ش): «عليه» بدلًا من «علي الحوض».

(٧) هنا قلب، وصواب الحديث: «الشعثة رؤوسهم، الشحبة وجوههم، الدنسة ثيابهم».

(٨) أخرجه الإمام أحمد (٦١٦٢) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. والترمذي (٢٤٤٤) من حديث ثوبان رضي الله عنه وقال: «غريب من هذه الوجه». السدد: الأبواب.

وهم أتباعُ الرسل كما أخبرَ اللهُ تعالى عن نوحٍ عليه السَّلام أنَّ قومَه عيَّروه باتِّباع الضُّعفاءِ له، فقالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١] وكذلك قال هِرَقْلُ لأبي سُفيان لمَّا سأله عن النبيِّ ﷺ: وهل يتَّبعه أشرافُ النَّاسِ أم ضعفاؤُهم؟ فقال: بل ضُعفاؤهم قال هرقل: هم أتباعُ الرُّسُلِ(١).

وهم أفضلُ من الأغنياءِ عند كثيرٍ من العلماءِ أو أكثرِهم، وقد دلَّ على ذلكَ أدلة كثيرةٌ:

منها: قول النبي ﷺ حين مَرَّ به الغنيُّ والمِسْكينُ في المسجدِ: «هذا ـ يعني المسكين ـ خيرٌ مِنْ ملءِ الأرضِ من مِثْلِ(٢) هذا»(٣) يعني الغنيَّ، وقد خَرَّجه البخاريُّ وغيرُه.

ومنهم: مَنْ لو أقسمَ على الله لأبرَّه، كما في الصَّحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال في أهل الجنة: «كل ضعيفٍ متضعَّفٍ، لو أقسمَ على الله لأبرَّه»(٤).

وفي رواية: «أشعث ذو طِمْرَينِ»(٥).

وفي رواية خَرَّجها ابنُ ماجه أنَّهم ملوكُ أهلِ الجنَّة(٦).

وفي الحديث المشهور: رب أشعثَ أغبرَ(٧) ذي طِمْرين مدفوعٍ بالأبواب لو أقسم على الله لأبرَّه» خرَّجه الحاكمُ وغيرُه(٨).

---

(١) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٣٧٣) من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

(٢) «مثل» سقطت من (ت) و(ف)، و«من» لا توجد في الصحيحين.

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩١)، (٦٤٤٧) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٤٩١٨)، (٦٦٥٧)، ومسلم (٢٨٥٣) من حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (١٢٤٧٦) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤١١٥)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٧) «أغبر»: ليست في (ش)، والطمر: الثوب الخَلَق البالي.

(٨) أخرجه أبو عوانة في «المسند» (١٢٤٥١) من حديث أبي هريرة، وهو عند مسلم (٢٨٥٤) وليس فيه «أغبر ذي طمرين»، وحديث أبي هريرة عند الحاكم (٤/ ٣٢٨) وليس فيه «مدفوع بالأبواب».

رُبَّ ذي طِمْرين نِضْوٍ[١] يأمنُ العالَمُ شرَّه

لا يُرى إلا غنياً وهو لا يملك ذَرَّهْ

ثم لو أقسمَ في شيـ ـءٍ على اللهِ أبرَّه[٢]

قال ابنُ مسعودٍ: كونوا جُدُدَ القلوبِ خُلقان الثِّياب، سُرُجَ اللَّيلِ، مصابيحَ الظَّلامِ، تُعرفون في أهل السَّماء، وتَخْفَون على أهلِ الأرض[٣].

طوبى لعبدٍ بحبلِ اللهِ مُعْتَصَمُهْ على صِراطٍ سَوِيٍّ ثابتٍ قَدَمُهْ

رَثُّ اللِّباسِ جَديدِ القلبِ مستترٍ في الأرضِ مشتهرٍ فوقَ السماءِ سِمُه

ما زالَ يستحقِرُ الأولى بهِمَّتِهِ حتى ترقَّتْ إلى الأُخرى به هِمَمُه

فذاكَ أعظمُ من ذي التَّاج متَّكِئاً على النَّمارقِ محتفّاً به خَدَمُهْ[٤]

واعلم أن محبة المساكين لها فوائد كثيرة:

منها: أنَّها تُوجِبُ إخلاصَ العملِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإحسانَ إليهم لمحبَّتهم لا يكونُ إلا للهِ عزَّ وجلَّ، لأنَّ نفعَهُم في الدُّنيا لا يُرجى غالباً، فأمَّا من أحسنَ إليهمْ ليُمْدَحَ بذلكَ فما أحسنَ إليهم حُبّاً لهم بل حُبّاً لأهلِ الدنيا وطلباً لمدحِهم له بحبِّ المساكين.

---

(١) النضو: هو البعير المهزول. فشبهه به.

(٢) أنشده أبو بكر عبد الله بن حميد المؤدب، كما في «الغرباء» للآجري (٣١)، ونقله عن المصنف: الغزي في «حسن التنبه» (٣/ ٤٧٢). ووقع في (ش): «لو أقسم على الله في شيء».

(٣) مختصر من حديث لابن مسعود رضي الله عنه. أخرجه الدارمي (٢٦٢) وعنده: «مصابيح الهدى». خُلقان الثياب: ثيابهم بالية.

(٤) الأبيات في «مقامات الزمخشري» (ص ٣٦).

ومنها: أنها تُزيلُ الكِبْرَ فإنَّ المستكبِر[١] لا يرضَى مجالسةَ المساكينِ، كما سبقَ عن رؤساءِ قريشٍ والأعرابِ، وحذا[٢] حذوهم من هذه الأمة، مَن تشبَّه بهم، حتَّى إنَّ بعضَ علماءِ السُّوء كان لا يشهدُ الصَّلاةَ في جماعةٍ خشيةَ أن يُزاحِمَهُ المساكينُ في الصَّفِّ[٣]، ويمتنعُ بسببِ هذا الكِبْر خيرٌ كثيرٌ جداً، فإنَّ مجالِسَ الذِّكرِ والعِلْمِ يقعُ فيها كثيراً مجالسةُ المساكينِ فإنَّهم أكثرُ أهلِ هذهِ المجالس، فيمتنعُ المستكبرُ[٤] من هذهِ المجالسِ بتكبُّره، وربَّما كان المسموعُ منه الذكرُ والعلمُ من جملةِ المساكينِ، فيأنفُ أهلُ الكِبْر من التردُّدِ إلى مجلسه لذلك[٥]، فيفوتُهم خيرٌ كثيرٌ.

وقد أخبرَ اللهُ تعالى عن المشركين أنَّهُمْ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يشيرون إلى عظماءِ مكَّةَ والطائف، كعُتْبَةَ بنِ ربيعة وأخيه شيبة، ونحوهما من صَناديدِ قريش وثَقِيْف، ذوي الأموالِ والشرف فيهم، ممَّن كانَ أكثرَ مالاً من محمد ﷺ وأعظمَ رياسَةً عندهم، وردَّ عليهم سُبحانه بأنَّه يقسِم رحمتَه كما يشاء، وأنه كما رفعَ درجاتِ بعضِهم على بعضٍ في الدنيا فكذلك يرفعُها في الآخرة، وأن رحمتَهُ بالنُّبوَّة والعلم والإيمانِ خيرٌ مما يجمعونه من الأموالِ التي تفنى، فهو يختصُّ بهذهِ الرَّحمةِ الدينيَّةِ مَنْ يشاء ويَرْفعُه على أهل النِّعم الدُّنيويةِ، وقد خصَّ محمداً ﷺ بما لم يَشْرَكْهُ غيرُه فيه من هذه النِّعم كما قال

---

(١) في (ش): «المتكبر» وفي حاشيتها ما يوافق المثبت.

(٢) في (ش): «ومن حذا».

(٣) كتب على حاشية (ف) هنا: «مطلب: علماء السوء الذين لا يخرجون للصلاة مع الجماعة إلى المسجد خشية من أن يجلس أو يزاحمه فقراء المسلمين والمساكين».

(٤) في (ش): «المتكبر».

(٥) في (ف): «في مجلسه»، وفي (ش): «مجلسه كذلك».

تعالى لـه: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

وقد كانَ عليُّ بنُ الحسين يجلسُ في مجلسِ زيدِ بن أَسلم، فيُعاتَبُ على ذلكَ، فيقولُ: «إنما يجلسُ المرءُ حيثُ يكون له فيه نفعٌ»[١]، أو كما قال، يشيرُ إلى أنَّه ينتفعُ بسماعِ ما يسمَعُه من العِلمِ والحكمةِ. وزيدُ بنُ أسلمَ أبوه مولىً لعُمَرَ، وعليُّ بنُ الحسين سيِّدُ بني هاشمٍ وشريفُهم.

ولمَّا اجتمعَ الزهريُّ وأبو حازم الزاهدُ بالمدينةِ عند بعضِ بني أُميَّة لما حَجَّ وسمعَ الزهريُّ كلام أبي حازمٍ وحكمَتَه أعجبه ذلك، وقال: هو جاري منذُ كذا وكذا وما جالستُه ولا عرفتُ أنَّ هذا عنده! فقال له أبو حازم: أجلْ إني من المساكينِ، ولو كنتُ من الأغنياءِ لعرفتَني فوبَّخه بذلكَ[٢].

وفي روايةٍ عنه أنه قال لـه: «لو أحببتَ اللهَ لأحبتَني، ولكنك نسيتَ اللهَ فنسيتني»[٣]. يشيرُ إلى أنَّ من أحبَّ اللهَ تعالى أحبَّ المساكينَ من أهلِ العلمِ والحِكمة لأجلِ محبَّتِهِ لله تعالى، ومَنْ غَفَلَ عنِ اللهِ تعالى غَفَلَ عَن أوليائِه من المساكِينِ فلمْ يرفعْ بهم رأساً، ولم ينتفعْ بما اختصَّهُم اللهُ عزَّ وجلَّ به من الحِكْمة والعلومِ النَّافِعةِ التي لا تُوجد عندَ غيرهم من عُلماءِ أهلِ الدنيا.

وقدْ كانَ عُلماءُ السَّلفِ يأخذونَ العِلمَ عن أهلِهِ، والغالبُ عليهمُ المسكنةُ

---

(١) أورده البخاري في «التاريخ الكبير» (١٢٨٧). وأخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ١٣٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «المدخل إلى السنن» (١٦٧٠) من طريق الإمام أحمد بن حنبل في «مسائله» رواية ابنه أبي الفضل صالح (١١١٨).

«صفة الصفوة» لابن الجوزي (١/ ٣٨٧). وفي (ش): «أحببتني».

وعدمُ المالِ والرفعةِ في الدنيا، وَيَدَعونَ أهلَ الرِّياساتِ والولاياتِ فلا يأخذونَ عنهم ما عندهم من العلمِ بالكُلِّيةِ.

ومنها: أنه يوجِبُ صلاحَ القلْبِ وخشوعَه. وفي «المُسنَد» عن أبي هريرةَ: أنَّ رجلاً شَكى إلى رسولِ الله قَسوةَ قلبِه، فقال له: «إنْ أحببتَ أن يَلِينَ قلبُك: فأطعمِ المسكينَ وامسحْ رأسَ اليتيم»(١).

ومنها: أنَّ مُجالسةَ المساكين توجبُ رضى مَنْ يُجالِسُهم برزقِ الله عز وجل، ويعظُمُ عندَه نعمةُ الله عزَّ وجلَّ عليه بنظَرِه في الدنيا إلى مَنْ دُونه. ومجالسةَ الأغنياءِ تُوجِبُ التَّسَخُّطَ بالرِّزق ومدَّ الأعينِ(٢) إلى زِينتِهم وما هم فيه، وقد نهى اللهُ عز وجل نبيه ﷺ عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

وقال النبي ﷺ: «انظُروا إلى من دُونَكُم، ولا تنظُروا إلى من فَوقَكم؛ فإنَّه أجدرُ أنْ لا تزدَروا نعمةَ اللهِ عليكُم»(٣).

قال أبو ذرٍّ: وصَّاني رسولُ الله ﷺ أنْ أنظُرَ إلى من دُوني، ولا أنظرَ إلى مَنْ فَوْقي، ووصَّاني أنْ أُحِبَّ المساكينَ وأدنُو منهُم(٤).

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٥٧٦) (٩٠١٨).

(٢) في (ش): «العين».

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٦٣) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «انظروا إلى من هو أسفل منكم...». واللفظ الذي أورده المصنف أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (١١٠٧) من حديث ابن مسعود، والصواب فيه حديث أبي هريرة.

(٤) سبق نحوه في أول الفصل الثالث من حديث أبي ذر رضي الله عنه. أخرجه الإمام أحمد (٢١٤١٥). ولعله هو الصواب في هذا الحديث، وفي (ت): «أوصاني» و(ف): «وقال أبو الدرداء: أوصاني»، =

وكانَ عونُ بنُ عبدِ الله بنِ عُتبةَ بن مسعود يُجالسُ الأغنياءَ، فلا يزالُ في غَمٍّ؛ لأنَّه لا يزالُ يرى مَنْ هو أحسنُ منه لِباساً ومَرْكباً وطعاماً ومَسْكناً، فتركَهُم وجالسَ المساكينَ فاستراحَ مِنْ ذلك[١].

وقد رُويَ عن النَّبي ﷺ أنَّه نهى عائشةَ عن مخالطةِ الأغنياءِ[٢].

وقالَ عُمَر: إيَّاكم والدخولَ على أهل السَّعَة، فإنَّه مَسْخَطَةٌ للرزْقِ[٣].

واعلمْ أنَّ المِسْكينَ إذا أُطلِقَ فإنَّما يُرادُ به غالباً: مَنْ لا مالَ له يكفيه، فإنَّ الحاجةَ تُوجِبُ السُّكونَ والتَّواضُعَ، بخلافِ الغِنى فإنَّه يُوجِبُ الطُّغيانَ، ولهذا ذُمَّ الفقيرُ المختالُ وعَظُمَ وعيدُه، لأنَّه عصى بما ينافي فَقْره، وهو الاختيالُ والزَّهْو والكِبْر.

ولمَّا كان المسكينُ عند الإطلاقِ لا ينصرفُ إلا إلى مَنْ لا كفايةَ له من المالِ: وصَّى اللهُ تعالى بإيثارِ[٤] المساكين وإطعامِهمِ الطَّعامَ، ومَدَحَ من يطعمهم[٥]، وذَمَّ

= ولم أجد من جعله من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه غير الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧١٨٣) وعزاه للطبراني، ولعله في المفقود من معجمه الكبير. وكأنه تصحيف.

(١) أورده الترمذي في «جامعه» عقب الحديث (١٧٨٠). وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي (١٧٨٠) في ضمن حديث، ولفظه: «وإياك ومجالسة الأغنياء». وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان، سمعت محمداً يقول: صالح بن حسان منكر الحديث...».

(٣) أخرجه مسدد عن الحسن مقطوعاً، ولفظه: «إن دخولك على أهل السَّعة مَسْخَطَةٌ للرزق»، كما في «إتحاف الخيرة المهرة» للبوصيري (٧١٨٣). ولم أجده عن عمر رضي الله عنه.

(٤) في (ش): «بإيتاء».

د) في (ت) و(ف): «يفعل ذلك».

مَنْ لا يَحُضُّ على إطعامِهم، وجعلَ لهم حقًّا في أموالِ الصَّدقاتِ والفَيءِ وخُمُسِ الغنائِمِ وحضورِ قِسمةِ الأموالِ، **وهؤلاءِ المساكينُ على قِسْمين:**

أحدهُما: مَنْ هو مُحتاجٌ في الباطِنِ وقد أظهرَ حاجَتَه للنَّاسِ.

والثاني: من يَكتُم حاجَتَه، ويُظْهِرُ للنَّاسِ أنَّه غَنِيٌّ، فهذا أشرفُ القِسمين، وقد مَدَحَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وقال النبيُّ ﷺ: «ليسَ المسكينُ بهذا الطوَّافِ الذي تَرُدُّه اللقمةُ واللُّقمتانِ والتمرةُ والتمرتان، ولكنَّ المسكينَ مَنْ لا يجدُ غِنًى يُغْنِيه، ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدَّقَ عليه[1].

وقال بعضُهم: وهذا هو المحرومُ المذكورُ في قوله عز وجل: ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩، المعارج: ٢٥]، فأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ مَنْ كتمَ حاجتَه فلمْ يُفْطَن[2] له أحقُّ باسمِ المسكين مِنَ الذي أظهرَ حاجَتَه بالسؤال، وأنَّه أحقُّ بالبِرِّ منه، وهذا يدُلُّ على أنَّهم كانوا لا يَعْرفونَ من المساكينِ إلا مَنْ أظهَرَ حاجتَه بالسؤالِ[3].

وبهذا فَرَّقَ طائفةٌ من العلماءِ بين الفَقيرِ والمسكين، فقالوا: مَنْ أظهرَ حاجتَه فهو مسكينٌ، ومن كَتَمها فهو فقيرٌ.

وفي كلام الإمامِ أحمدَ إيماءٌ إلى ذلك، وإن كانَ المشهورُ عنه: أنَّ التفريقَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٩) (٤٥٣٩)، ومسلم (١٠٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في حاشية (ش): «يتفطن».

(٣) وممن ذهب إلى ذلك: قتادة، والزهري. انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ٥١٤ ـ ٥١٥).

بينهما بكثرةِ الحاجَةِ وقلَّتِها، كقولِ كثيرٍ من الفقهاء، وهذا حيث جَمَعَ بين ذكرِ الفقيرِ والمسكينِ كما في آيةِ الصَّدقاتِ، فأمَّا إنْ[1] أفردَ أحدَ الاسمينِ دخلَ فيه الآخرُ عند الأكثرين.

وقد كانَ كثيرٌ من السَّلَفِ يكتُمُ حاجَتَه ويُظهِرُ الغِنى تَعفُّفاً وتكرُّماً، منهم: إبراهيمُ النَّخَعيُّ كان يلبَسُ ثياباً حِساناً[2]، ويخرجُ بها إلى النَّاسِ وهُمْ يرون أنه تحلُّ له الميتةُ من الحاجَةِ[3].

وكانَ بعضُ الصَّالحينَ يلبَسُ الثيابَ الجميلةَ، وفي كمِّه مفتاحُ دارٍ كبيرةٍ، ولا مأوى له إلا المساجدُ.

وكانَ آخرُ لا يلبَسُ جبَّةً في الشِّتاءِ لفقْرِه، ويقول: بي عِلَّةٌ تمنَعُني مِنْ لُبسِ المحشوِّ، وإنما يعني به الفقرَ[4].

إنَّ الكريمَ ليُخْفِي عنكَ عُسْرَتَهُ ... حَتَّى تراهُ غنيّاً وهو مَجْهُودُ[5]

---

(١) في (ش): «من».

(٢) في (ش): «حسناء».

(٣) أخرجه الدينوري في «المجالسة وجواهر العلم» (١٩٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٢١).

(٤) هو الإمام الفقيه، أحد رواة الجامع الصحيح: أبو زيد محمد بن أحمد المروزي الفاشاني المتوفى (سنة ٣٧١هـ) رحمه الله تعالى. انظر: «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٤/ ٢٠٨).

(٥) نسبه ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (١/ ١٩٧) إلى حمّاد عجرد، ونسبه محمد بن أيدمر في «الدر الفريد وبيت القصيد» (٤/ ٤٤٥) إلى بشار، ونسبه صدر الدين البصري في «الحماسة البصرية» (٢/ ٦٣) إلى كلثوم بن عمرو التغلبي. قال الثعالبي في «الإعجاز والإيجاز» (ص ١٤٩) تحت ترجمة (حماد عجرد): «غرَّة شعره ما أنشده له ابن المعتز، ورواه غيره لبشار، ولأيهما كان فهو من خير الكلام وسحر البيان».

وكانَ بعكسِ هؤلاءِ من لَبِسَ[١] ثيابَ المساكينِ مع الغنى، تواضعاً لله عزَّ وجَلَّ، وبُعْداً من الكِبْر، كما كان يفعلُهُ الخلفاءُ الرَّاشدونَ الأربعةُ وبعدَهم عمرُ بنُ عبدِ العزيز، وكذلكَ كانَ جماعةٌ من الصَّحابَةِ منهم: عبدُ الله بن عُمَر، وعبدُ الله بن عمروِ بنِ العاصِ، وغيرهما رضي الله عنهم.

ورُوِيَ أنَّ أبا بكرٍ الصديقَ رضي الله عنه كانَ يُنْشِدُ:

إذا أردتَ شريفَ النَّاسِ كلِّهِمِ فانظرْ إلى مَلِكٍ في زَيِّ مِسكينِ

ذاكَ الذي حَسُنَتْ في النَّاسِ سيرَتُه وذاكَ يصلُحُ للدُّنيا وللدِّينِ[٢]

وكانَ عليٌّ رضي الله عنه يعاتَبُ على لِباسِهِ فيقول: هو أبعدُ عن الكِبْر وأجدَرُ أنْ يقتديَ بيَ المسلمُ[٣].

وعُوتِبَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيز على ذلك فقال: إنَّ أفضَلَ القَصْدِ[٤] عِنْدَ الجِدَةِ. يعني: أفضل ما اقتصدَ الرجلُ في لِباسِهِ مع قُدْرَته ووُجْدانه[٥].

وفي سننِ أبي داودَ وغيرِهِ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «البَذاذَةُ من الإيمانِ»[٦] يعني التَّقشُّفَ.

---

(١) في (ت) و(ف): «يلبس».

(٢) أخرجه بن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٨/ ١٢٧) من رواية ابن عباس، عنه رضي الله عنهم ونسبه ابن عبد ربه في «العقد الفريد» (١/ ٣٦) إلى أبي العتاهية.

(٣) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زياداته على «المسند» (٧٠٣).

(٤) تحرف في (ف): إلى «الفضل».

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (١٥٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٢٦١).

(٦) أخرجه أبو داود (٤١٥٨) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. والبذاذة: ترك الترفه والتزين، ولا تعني الوساخة وسوء الثياب.

وفي الترمذيِّ عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ تركَ اللباسَ تواضعاً لله عزَّ وجلَّ، وهو يقدِرُ عليه دعاه الله يومَ القيامَةِ حتى يُخَيِّره مِنْ أيِّ حُلَلِ الإيمانِ شَاء [١] يَلْبَسُها»[٢].

وخَرَّجَه أبو داودَ من وجه آخرَ، ولفظه: «مَنْ تركَ ثوبَ جَمالٍ، وهو يقدر عليه ـ أحسبه قال: تواضعاً ـ كساهُ الله حُلَّةَ الكرامةِ»[٣].

وإنما يُذَمُّ مَنْ تركَ اللباسَ مع قدرته عليه بُخلاً على نفسه، أو كتماناً لنعمةِ الله، وفي هذا جاءَ الحديثُ المشهورُ: «إنَّ اللهَ إذا أنعمَ على عبدِهِ نعمةً أحبَّ أن يرى أثرَ نعمتِه على عبده»[٤]، ومَنْ لبس لباساً حَسَناً إظهاراً لِنعْمة الله ولم يفعلْه اختيالاً كانَ حسناً[٥].

وكانَ كثيرٌ من الصَّحابة والتَّابعين يَلْبَسون لِباساً حَسناً، منهم: ابنُ عبَّاس والحسنُ البصريُّ، وقَدْ صَحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه سُئِلَ عن الرَّجُلِ يُحِبُّ أنْ يكونَ لباسُه حسناً ونعلُه حسناً، فقال: «ليس ذلكَ بالكِبْرِ، وإنَّما الكِبْرُ بطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ» يعني[٦]: التكبُّرَ[٧] عن قَبُولِ الحَقِّ والانقيادِ له، واحتقارَ الناسِ وازدراءهم فهذا هو الكِبْرُ.

فأمَّا مجرَّد اللِّباسِ الحَسَنِ الخالي عن الخُيلاءِ فليس بكبر، واحتقارُ النَّاسِ مع رَثَاثَةِ اللباس كِبْرٌ، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ ماشياً في طريقٍ، وهناك أَمَةٌ

---

(١) «شاء» سقطت من (ش).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٨١) من حديث معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٤٥) من حديث رجل من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ مبهماً.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٦٠٩٣) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٥) في حاشية (ف): «قلت: ومن لبس لباساً خشناً ولم يفعله احتيالًا كان أيضاً حسناً».

(٦) هـذا اللفظ مركّب من أحاديث، وآخره في «صحيح مسلم» (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٧) في (ش): «الكبر».

سوداءُ، فقال لها رجل: الطريقَ الطريقَ للنبي ﷺ، فقالت: الطريقُ يَمْنَةً ويَسْرةً، فقال النبيُّ ﷺ: «دعوها فإنَّها جَبَّارَةٌ». خَرّجَه النسائيُّ وغيره[١].

وفي روايةٍ للطَّبراني وغيره، قالوا: يا رسول الله! إنها ـ يعني ـ مسكينةٌ، قال: «إنَّ ذاكَ في قَلْبِها»[٢] يعني أنَّ الكِبْر في قَلْبها، وإنْ كانَ[٣] لباسُها لباسَ المساكين.

وقال الحسن: إنَّ أقواماً جعلُوا التواضُعَ في لِباسِهم، والكِبْرَ في صُدُورهِم، إنَّ أحدَهُم أشدُّ كبراً[٤] بمِدْرَعتهِ من صَاحِبِ السَّريرِ بسَرِيره، وصَاحِبِ المنبَرِ بمنْبَرِهِ[٥].

قالَ أحمدُ بنُ أبي الحَواري: قال لي سُليمان بنُ أبي سليمان ـ وكان يعدل بأبيه ـ: أيَّ شيءٍ أرادُوا بثيابِ الصُّوف؟! قلت: التواضع. قال: وما يتكبَّرُ أحدُهم إلا إذا لَبِسَ الصُّوفَ![٦].

وقال أبو سليمان: يكونُ ظاهِرُكَ قُطْنياً وباطنك صُوفياً[٧].

وقال أبو الحسن بن بشار[٨]: صَوِّفْ قلبَكَ، والبس القُوهِيَّ على القُوهيِّ[٩]؛

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» (١٠٥٠٠) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) عند الطبراني في «الكبير»، وهو في المفقود منه. انظر: «مجمع الزوائد» للهيثمي (٣٦٣).

(٣) في (ش): «كان في».

(٤) في (ش): «كبرته».

(٥) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٩/ ١٦٩)، وابن أبي الدنيا في «الخمول والتواضع» (٧١) بنحوه. وليس فيه ذكر السرير والمنبر، بل فيه «صاحب الكساء بكسائه، وصاحب الطرف بمطرفه». وجاء أوله في (ش): «إن قوماً...».

(٦) أورده ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ١٧٦).

(٧) أخرجه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ١٧٧).

(٨) هو أبو الحسن علي بن محمد بن بشار، الزاهد العارف، المتوفى سنة ٣١٣ رحمه الله تعالى.

(٩) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٣/ ٥٣٤)، وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (٢/ ٦٣ ط. الفقي)، =

يعني رفيعَ الثياب، فمتى أظهرَ الإنسانُ لباسَ المساكين بدعوى الصَّلاحِ ليشتهرَ بذلك عند الناس كانَ ذلك كِبْراً ورِياءً.

ومن هنا تركَ كثيرٌ من السَّلَفِ المُخْلصين اللباسَ المختَصَّ بالفقراءِ والصالحين، وقالوا: إنَّه شُهْرة.

ولما قَدِمَ سيَّارٌ أبو الحَكَمِ البصرةَ لزيارةِ مالكِ بنِ دينارٍ لبسَ ثياباً حِساناً، ثم دخلَ المسجدَ فصلَّى صلاةً حسنةً، فرآهُ مالكٌ ولم يعرفه، فقال له: يا شيخ إني أرغبُ بك عن هذه الثيابِ مع هذهِ الصَّلاةِ، فقال له: يا مالكُ ثيابي هذه تَضَعني عندَك أم ترفعُني؟ قال: بل تَضَعُك. فقال: نِعْم الثوبُ ثوبٌ يضَعُ صاحبَه عندَ الناسِ، ولكن انظرْ يا مالك، لعلَّ ثوبيكَ هذينِ ـ يعني الصوف ـ أنزلاك مِنَ النَّاسِ ما لم يُنزلاكَ من الله. قال: فبكى مالكٌ وقامَ إليه واعتَنَقَه، وقال له: أنشدك الله أنتَ سيارٌ أبو الحكم؟ قال: نعم[1].

فلهذا كَرِهَ مَنْ كَرِه من السَّلفِ كابنِ سيرينَ وغيرِهِ لباسَ الصُّوفِ[2] حيثُ صارَ شعاراً للزاهدين، فيكون لباسُه إشهاراً للنفس[3] وإظهاراً للزهد.

وأما النبيُّ ﷺ فكانَ يَلْبَسُ ما وجدَ، فتارةً يلبَسُ لباسَ الأغنياءِ مِنْ حُلَلِ اليمن وثيابِ الشَّام ونحوها، وتارةً يلبَسُ لباسَ المساكينِ؛ فيلبَسُ جُبَّةً من صُوفٍ أحياناً، وأحياناً يتَّزِرُ بعباءةٍ ويهنأُ إبلَ الصَّدَقةِ بيده، يعني أنه يطليها بيدهِ ويصلِحُها، كما

= وذكره ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص١٧٧).

والقوهي: ضرب من الثياب، بيض، كما في «لسان العرب» (١٣/ ٥٣٢) وهو فارسي نسبة إلى قُوهِستان في نواحي خراسان.

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣١٣، ٣١٤).

(٢) انظر: «الزهد» زيادات نعيم بن حماد على المروزي عن ابن المبارك (٢/ ٦٤).

(٣) في (ت) و(ف): «اشتهاراً».

يفعلُ أربابُ الإبلِ بها، ولم يبعث اللهُ نبياً من أهلِ الكِبْرِ، وإنَّما بعثَ مَنْ لا كِبْرَ عندَه ولا يتكبَّرُ عن معالجةِ الأشياءِ التي يأنَفُ منها المتكبِّرون كرعايةِ الإبلِ والغَنَمِ وإجارةِ نفسِهِ عند الحاجَةِ إلى الاكتسابِ، ومَنْ أعطاهُ اللهُ منهم مُلْكاً فإنَّه يزدادُ به[1] تواضُعاً لله عزَّ وجلَّ كداودَ وسليمانَ ومحمد صلَّى الله عليه وسَلَّمَ تسليماً كثيراً.

وقد يُطْلَقُ اسمُ المسكين ويرادُ به: من استكانَ قلبُه للهِ عزَّ وجلَّ، وانكسرَ له وتواضعَ لجلالِهِ وكبريائِهِ وعظمتِهِ وخشيتِهِ ومحبتِهِ ومهابتِهِ، وعلى هذا المعنى حَمَلَ بعضُهُم الحديثَ المرويَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «اللهمَّ أحيِني مسكيناً، وأَمِتني مِسكيناً، واحشُرني في زُمْرة المساكين». خَرَّجَهُ التِّرمذيُّ من حديثِ أنسٍ[2]، وخرَّجهُ ابنُ ماجهْ من حديثِ ابن عباسٍ[3] وفي حملِهِ على ذلكَ نظرٌ لأنَّ في تمامِ حديثِهِما ما يَدُلُّ على أنَّ المرادَ به المساكين مِنَ المالِ لأنَّه ذَكَرَ سَبْقَهُم الأغنياءَ إلى الجنَّةِ مع أنَّ في إسنادِ الحديثين ضَعْفاً.

وقَدْ خُيِّر النبيُّ ﷺ بينَ أن يكونَ نبيًّا مَلِكاً أوْ عبْداً رسُولاً، فأشار عليه جبريلُ أنْ تواضَعْ، فقال ﷺ: «بلْ عبداً رسُولاً، فكانَ بعدَ ذلكَ لا يأكُلُ متَّكِئاً ويقول: «آكلُ كما يأكلُ العبدُ، وأجلِسُ كما يجلسُ العبدُ»[4].

---

(١) في (ش): «فإنه لم يزل دأبه».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٥٢) وقال: «غريب» وقد سبق تخريج طرف آخر منه: «يا عائشة أحبي المساكين».

(٣) الذي عند ابن ماجه (٤١٢٦) هو من حديث أبي سعيد لا ابن عباس. وممن ذهب إلى حمله على استكانة القلب: البيهقي، وإليه يشير صنيع ابن الجوزي، والتقي ابن تيمية، والتقي السبكي. وممن لم يستبعد حمل الحديث على ظاهره: السيوطي، وانظر حاشيته على سنن ابن ماجه والترمذي.

(٤) أخرجه أبو يعلى (٤٩٢٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

قال الحسن: قال رسولُ الله ﷺ: «فأعطاني اللهُ لذلكَ أنْ جعلني سيِّد ولدِ آدمَ، وأوَّلَ شافِعٍ، وأوَّلَ مُشَفَّع، وأولَ مَنْ تنشَقُّ عنه الأرضُ»[١].

وصحَّ عنه ﷺ أنه قال: «إنما أنا عبدٌ فقولوا عبد الله ورسوله»[٢]. فأشرفُ أسمائهِ عبدُ الله، ولهذا سُمِّي بهذا الاسم في القرآن في أفخر مقاماته، فلما حقَّقَ ﷺ عبوديةَ ربِّه حصلتْ له السِّيادةُ على جميعِ الخَلْقِ.

كان كثيرٌ من العارفين[٣] يقولُ في مناجاتهِ لربِّه: كفى بي فَخْراً أنِّي لك عبدٌ، وكفى بي شَرفاً أنكَ لي رَبٌّ[٤].

وكانَ بعضُهم يقولُ: كلَّما ذكرتُ أنَّه ربي وأنّي عبدُه حصلَ لي من السُّرورِ ما يصلُحُ به بدني[٥].

شَرَفُ النفوسِ دخُولها في رِقِّهمْ والعبدُ يحوي الفخْرَ بالمُتَمَلِّكِ[٦]

كانَ أبو يزيدَ يُنْشِد:

يا[٧] ليتني صرتُ شيئاً من غيرِ شيءٍ أُعَدُّ

---

(١) أخرج ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧١٣٤) عن الحسن نحوه، دون ذكر: «فأعطاني الله لذلك»، وقولِه: «مشفّع». وله شواهد عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) في (ش): «كان كثيراً يقول».

(٤) هو بشر الحافي رحمه الله تعالى، كما ذكره المصنف في رسالته «شرح حديث: لبيك اللهم لبيك»، وانظر: «تفسير سورة الفاتحة» للمصنف.

(٥) أخرجه ابن الجنيد الختلي في «المحبة لله» (٢٦٠) عن رجل بالبصرة. وذكره المصنف أيضاً في «شرح حديث: لبيك اللهم لبيك».

هو ليحيى بن يوسف بن يحيى الصرصري الحنبلي، انظر: «مسالك الأبصار» لشهاب الدين العمري (١٦/ ١٩٤)، وذكره أيضاً ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥١) والمصنف في «تفسير سورة الفاتحة».

) في (ف): «وا».

أصبحْتُ للكُلِّ مولىً لأَنَّني لكَ عَبْدُ[١]

فمن انكسرَ قلبُه للهِ تعالى واستكانَ وخشَعَ وتواضَعَ جبرهُ الله عزَّ وجَلَّ، ورفعَه بقَدْر ذلك.

وفي الأثرِ المشهورِ: أنَّ اللهَ عز وجل قالَ لموسى على نبينا وعليه السَّلام حينَ سأله أينَ أَجِدُكَ؟ قال: عندَ المنكسِرة قلوبُهم من أجلي، فإنِّي أدنُو منهم كلَّ يومٍ باعاً، ولولا ذلكَ لانهدموا[٢].

ورُوِيَ عن عبدِ الله بن سَلام أنَّه فَسَّره فقال: «همُ المنكسرةُ قلوبُهم بحبِّ اللهِ عَنْ حُبِّ غيرهِ»[٣].

وفي الحديثِ المشهورِ المرفوعِ: «إنَّ الله تعالى إذا تجلَّى لشيءٍ من خَلْقِه خَشَعَ له»[٤]، فإذا تجلَّى لقلوبِ العارفين عظمةُ اللهِ وجلالُه وكبرياؤه اندكَّتْ قلوبُهم من هَيبته، وخشعتْ وانكسرتْ من محبَّتِه ومخافَتِه.

---

(١) ذكره المصنف أيضاً في رسالته «شرح حديث: ما ذئبان جائعان».

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص ٩٥)، وابن الجنيد في «المحبة» (٦٩)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٥٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٦٤) (٦/ ١٧٧). وهو مشهور على ألسنة العُبَّاد والزهاد، لا على معنى الشهرة في اصطلاح أهل الحديث. وهو مما نُقِل إلينا من الإسرائيليات.

(٣) أخرجه ابن الجنيد في «المحبة» (٦٩).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٣٥١) (١٨٣٦٥)، والنسائي (١٤٨٥)، وابن ماجه (١٢٦٢) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما، وهو في كسوف الشمس على عهد رسول الله ﷺ.
وقال ابن خزيمة في «التوحيد» عقب روايته له (٢/ ٨٨٩): معنى هذا الخبر يشبه بقوله تعالى ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] إلا أن أبا قلابة لا نعلمه سمع من النعمان بن بشير شيئاً ولا لقيه.
وللأستاذ نبيل البصارة تحقيق مفيد في تخريج هذا الحديث في كتابه «أنيس الساري تخريج أحاديث =

مساكينُ أهلُ الحُبِّ حتَّى قبورُهم عليها ترابُ الذُّلِّ بين المقابرِ[١]

فالمسكينُ في الحقيقةِ: من استكانَ قلبُه لربِّه، وخشَعَ من خَشْيَته وحُبِّه، ولا يكونُ المسكينُ ممدُوحاً بدون هذه الصِّفَةِ، فإنْ لم يخشَعْ قلبُه مَعَ فقرِه وحاجَتِهِ فهو جَبَّارٌ، كتلك الأَمَةِ السَّوداءِ التي قالَ فيها النبيُّ ﷺ: «إنها جَبَّارة»، وهو إما عائِلٌ مستكبِرٌ أو فقيرٌ مُخْتالٌ، وكلاهما لا ينظرُ الله إليهما يومَ القيامةِ، فالمؤمنُ يستكينُ قلبُه لربِّه ويخشعُ له ويتواضَعُ ويُظْهِرُ مسكَنَتَه وفاقته إليه في الشِّدَّة والرَّخاء، أما في حَالِ الرخاء[٢] فإظهاراً للشُّكر[٣]، وأما في حَالِ الشِّدةِ فإظهاراً للذُّلِ[٤] والعبوديةِ والفَاقةِ والحَاجةِ إلى كَشْفِ الضُّر. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦]، فذمَّ مَنْ لا يستكينُ لربِّه عندَ الشِّدَّة.

= فتح الباري» (١١٢٠) ذكر فيه استشكال الغزالي هذه اللفظة في حديث الكسوف في كتابه «تهافت الفلاسفة»، وردّ التاج السبكي عليه في «منع الموانع»، وتحقيق ابن القيم في «مفتاح دار السعادة» وإشارته إلى إدراج هذه الجملة في حديث الكسوف... فلينظر.

وقد أبعد جدًّا مَنْ جعل كلام المصنف بعده من جملة الحديث ثم عَلَّقَ عليه بقوله: «لم أقف عليه ولا أظنه إلا موضوعاً، فهو أشبه بكلام المتصوفة من كلام المعصوم ﷺ، وغفر الله لابن رجب ما كان أغناه عن مثل هذه الأحاديث التي لا خطام لها ولا أزمة».

قلت: غفر الله لذلك المعلِّق لو تأنى لوجد الحديث، ولم يدرج كلام المصنف رحمه الله فيه ولم يعترض بعد ذلك!

(١) استشهد به الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله، ولم يُنسب إلى قائل، وهو في ديوان الشعر المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه (ص ٢٨) وفيه: «مساكين أهل الفقر...».

(٢) في (ت) و(ف): «الرضى».

(٣) في (ش): «فإظهار الشكر».

(٤) في (ش): «فإظهار الذل».

وكانَ النبيُّ ﷺ يخرُجُ عند الاستسقاءِ متواضِعاً مُتَخشِّعاً مُتمسْكِناً[١].

وحُبِسَ لمطرِّفِ بن عبدِ الله قريبٌ له فلَبِسَ خُلْقَانَ ثيابِهِ، وأخذَ بيدِهِ قَصَبةً، وقال: «أتمسكنُ لربي لعلَّه يُشَفِّعُني فيه»[٢].

ومما يُشْرعُ فيه التمسكنُ للهِ عزَّ وجَلَّ: حالُ الصلاةِ كما في حديثِ الفَضْل ابن عبَّاسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «الصَّلاةُ مَثْنى مَثْنى. تشَهَّدُ في كلِّ ركعتين، وتَخَشَّعُ وتَضَرَّعُ وتَمَسْكَنُ وتُقْنِعُ يديكَ ـ يقول: ترفعهما ـ وتقول: يا رب يا رب ثلاثاً، فمن لم يفعل ذلك فهي خِدَاجٌ». خَرَّجَهُ الترمذيُّ وغيرُه[٣].

وكذلكَ يُشْرعُ إظهارُ المسكنةِ في الدُّعاءِ، وخَرَّجَ الطبرانيُّ من حديثِ ابن عبَّاس قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ يدعو بعَرَفَةَ ويداهُ إلى صَدْرِه كاستِطْعامِ المِسْكِين[٤].

ومن حديثِهِ أيضاً: أن النبيَّ ﷺ قال في دعائِهِ عشيَّةَ عرفة: أنا البائسُ الفقيرُ، المُستَغِيْثُ المُسْتجِيْرُ، الوَجِلُ المُشْفِقُ، المُقِرُّ المعترِفُ بذَنْبِه، أسألكَ مسألةَ المِسكينِ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المُذْنِبِ الذَّليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائِفِ الضَّريرِ[٥].

---

(١) «متواضعاً متخشعاً»: عند الترمذي (٥٥٨، ٥٥٩) من حديث ابن عباس، وقال: حسن صحيح. و«متمسكناً»: عند ابن حبان (٢٨٦٢).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٨/ ٣٢٥).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٥).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٨٩٢).

(٥) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٨٧٧)، وفي «المعجم الكبير» (١١٤٠٥) و«الصغير» (٦٩٦)، ومن طريقه: الضياء في «المختارة» (٢٣٢).

وكانَ بعضُ السَّلفِ يجلِسُ باللَّيلِ مُطْرِقاً رأسَه، ويمدُّ يديهِ وهو ساكِتٌ كحالِ المسكينِ المُسْتَعطِي[١].

وقالَ طاوسٌ: دخلَ عليُّ بنُ الحسينِ الحِجْرَ ليلةً، فصلَّى، فسمعتُهُ يقولُ في سُجودِهِ: عُبَيْدُكَ بِفِنَائِكَ، مِسكينُكَ بِفِنَائِك، فقيرُك بِفِنائِك، سائِلك بِفِنائك. قال طاوس: فحَفِظْتُهنَّ فما دعوتُ بِهِنَّ في كَرْبٍ إلا فُرِّجَ عني[٢].

وكانَ بعضُ العُبَّاد قد حَجَّ ثمانينَ حَجَّة على قدميه، فبينا هو في الطَّوافِ وهو يقول: يا حبيبي يا حبيبي، فهتفَ به هاتفٌ: أليسَ ترضى أن تكونَ مِسْكيناً حتى تكونَ حبيباً؟! فغُشي عليه، فكان بعدَ ذلك يقول: مسكِيُنكَ مِسكينُكَ[٣].

ولشيخِ الإسلام ابنِ تَيْمِيَّة رحمه الله تعالى[٤]:

أنا الفقيرُ إلى ربِّ السماواتِ ... أنا المُسَكينُ في مجموعِ حَالاتي

أنا الظَّلومُ لنفسي وهي ظَالمتي ... والخيرُ إنْ جَاءَنا مِنْ عنْدِه يَاتي

قوله ﷺ: «وأنْ تَغْفِرَ لي وتَرْحَمَني»: المغفرةُ والرَّحمةُ يَجْمعانِ خيرَ الآخرةِ كلَّه، لأنَّ المغفرةَ سَتْرُ الذَّنبِ مع وِقايةِ شَرِّه.

وقَدْ قيل: إنَّه لا تَجْتَمِعُ المغفرةُ مع عُقوبَةِ الذَّنْبِ، حيثُ كانت المغفرةُ

---

(١) ذكره المصنف أيضاً في رسالته «الذل والانكسار».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الفرج بعد الشدة» (٦٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤١/ ٣٨٠ ـ ٣٨٢) من طرق.

(٣) عزاه المصنف في «الذل والانكسار» إلى ابن باكويه الصوفي بإسناد له.

(٤) في (ش): «شعر لابن تيمية رحمه الله» بخط مغاير نقله أيضاً ابن القيم في «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٠) باختلاف طفيف.

وقايةَ شرِّ الذَّنْبِ، وهذا لا يكونُ مع عُقوبةٍ عليه، ولذلك سُمِّي المِغْفَر مِغْفراً؛ لأنَّه يسترُ الرأسَ ويقيه الأذى. وهذا بخلافِ العَفْو، فإنَّه يكونُ تارةً قبلَ العُقوبةِ، وتارةً بعدَها.

وأما الرحمةُ فهي دخولُ الجنَّة وعُلوُّ درجاتِها. وجميعُ ما في الجنَّةِ من النَّعيم بالمخلوقاتِ، ومِنْ رِضى الله عزَّ وجلَّ وقُرْبِه ومشاهدتِهِ وزيارتِهِ فإنَّه من رحمةِ الله تعالى.

وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ عز وجل يقولُ للجنَّةِ: أنتِ رحمتي، أرحمُ بكِ مَنْ أشاءُ من عِبادي»[1]، فكلُّ ما في الجنَّةِ فهو من رحمتِه عَزَّ وجَلَّ، وإنما تُنَالُ برحمَتِه لا بالعملِ، كما قال ﷺ: «لنْ يدخلَ أحدٌ منكُمُ الجنَّةَ بعمَلِه»: قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله! قال: «ولا أَنَا إلا أَنْ يتغمَّدني اللهُ برحمةٍ منه»[2][3].

قوله ﷺ: «وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضني إليكَ غيرَ مفتونٍ»: المقصودُ بهذا الدُّعاءِ سلامةُ العبدِ مِنْ فِتَنِ الدُّنيا مُدَّةَ حياتِه، فإنَّ قدَّرَ اللهُ عز وجل على عِبَادِهِ فتنةً قَبَضَ عبدَهُ إليه قَبْلَ وقُوعِها، وهذا مِنْ أَهَمِّ الأدعيةِ، فإنَّ المؤمنَ إذا عاشَ سليمًا من الفِتَنِ، ثم قبضَه اللهُ تعالى قبلَ وقوعِهَا وحصولِ النَّاسِ فيها؛ كان ذلكَ نجاةً له من الشَّرِ كلِّه، وقد أمرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه أن يتعوَّذوا باللهِ من الفِتَن ما ظهرَ منها وما بَطَن[4].

---

(١) أخرجه البخاري في حديث (٤٨٥٠) من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في (ت) و(ف): «برحمته».

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٧٤٧٩)، والبخاري (٥٦٧٣) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٧) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

وفي حديث آخرَ: «وجَنِّبنا الفواحشَ والفِتَنَ ما ظَهرَ منها وما بَطَن»[١].

وكان يخُصُّ بعضَ الفِتنِ العظيمةِ بالذِّكرِ، فكانَ يتعوَّذُ في صَلاتهِ مِنْ أَربَعٍ، ويأمرُ بالتعوُّذِ منها: أعوذُ بالله من عذابِ جهنَّم، ومن عذابِ القَبْرِ، ومن فتنةِ المحيا والممات، ومن فتنةِ المسيحِ الدَّجَّال[٢].

ففتنةُ المحيا: تدخلُ فيها فِتَنُ الدِّينِ والدُّنيا كلُّها، كالكفر والبِدَع والفُسوق والعِصْيان.

وفتنةُ الممات: يدخلُ فيها سوءُ الخاتِمة، وفتنةُ المَلَكين في القبر، فإنَّ الناسَ يُفْتَنونَ في قُبورِهم مِثْلَ أو قريباً مِنْ فِتْنَةِ الدَّجالِ[٣]، ثمَّ خَصَّ فتنةَ الدَّجالِ بالذِّكرِ لِعظَمِ مَوْقِعها فإنَّه لمْ يكنْ في الدنيا فتنةٌ قبلَ يومِ القيامَةِ أعظمَ منها، وكلَّما قَرُبَ الزمانُ من الساعةِ كَثُرت الفِتَنُ.

وفي حديثِ معاويةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «لم يبقَ مِنَ الدنيا إلا بلاءٌ وفِتْنَةٌ»[٤].

وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ عن الفتنِ التي كقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ يُصبحُ الرَّجلُ فيها مُؤمِناً، ويُمسِي كافراً، يبيعُ دِيْنَه بعَرَضٍ من الدُّنيا[٥].

وكانَ أولُ هذه الفتن ما حَدَثَ بهم مِنْ مقتلِ[٦] عُمرَ رضي الله عنه ونَشأ من تلكَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٩٦١) وغيره من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. ولفظة: «والفتن» لا توجد في هذا الحديث، والله تعالى أعلم. لكن ذكرها أيضاً ابن الأثير في «جامع الأصول» (٢١٨٠)!

(٢) أخرجه البخاري (١٣٧٧)، ومسلم (٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه النسائي (١٤٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها في الكسوف.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٥) وهذا لفظه، والإمام أحمد (١٦٨٥٣)، وفي (ش): «إنه لم يبق».

(٥) في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عند مسلم (١١٨).

(٦) في (ش) و(ت): «حدث بعد عمر».

الفِتَنِ؛ فَقَتْلُ عثمانَ رضي الله عنه وما ترتَّب عليهِ من إراقَةِ الدِّماءِ وتفرُّقِ القُلوبِ وظهورِ فِتَنِ الدِّينِ كبِدَعِ الخوارجِ المارقينَ من الدِّينِ وإظهارِهم ما أظهَروا، ثمَّ ظهورُ بِدَعِ أهلِ القَدَرِ والرَّفْضِ ونحوِهم، وهذه هي الفِتْنَةُ التي تموجُ كموجِ البحرِ المذكورةِ في حديثِ حذيفةَ المشهورِ حين سأله عنها عُمرُ رضي الله عنه[١]، وكان حذيفةُ مِنْ أكثرِ النَّاسِ سُؤالاً للنبيِّ ﷺ عن الفتنِ خَوفاً من الوقوعِ فيها[٢]، ولمَّا حَضَرهُ الموتُ قال: حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ، لا أفلحَ مَنْ نَدِمَ، الحمدُ لله الذي سَبَقَ بي الفتنةَ قادَتَها وعُلُوجَها[٣]. وكانَ موتُه قبلَ قَتْلِ عثمان بنحوٍ من أربعينَ يوماً[٤]، وقيل: بل ماتَ بعدَ قتلِ عثمان[٥]. وكانَ في تلك الأيَّامِ رَجلٌ من الصحابةِ نائماً، فأتاه آتٍ في منامِهِ فقال له: قُمْ فاسأل اللهَ أن يعيذَكَ من الفِتنةِ التي أعاذَ منها صالحَ عِبادِهِ، فقامَ فتوضَّأ، وصلَّى، ثم اشتكى، وماتَ بعدَ قليلٍ[٦].

وقد رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال لرجل: «إذا متُّ أنا وأبو بكرٍ وعُمر وعثمان؛ فإن استطعتَ أن تموتَ فمُتْ»[٧]، وهذا إشارةٌ إلى هذه الفِتَنِ التي وَقعتْ بمقتَلِ عثمانَ رضي الله عنه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٥) وغيره.

(٢) كحديثه في البخاري (٣٦٠٦): كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني...

(٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٠٢) وقال: «صحيح الإسناد»، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٨٢) واللفظ له.

(٤) انظر: «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١/ ٥٠٨) وخطَّأه.

(٥) انظر: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨/ ١٣٧).

(٦) وهو عامر بن ربيعة رضي الله عنه، كما في «الطبقات الكبرى»، لابن سعد (٣/ ٣٦٠) و«حلية الأولياء» (١/ ١٧٨).

(٧) أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ١٧٥)، وله رواية مطولة أخرجها ابن حبان في «المجروحين» (٤٣٦). من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

والدعاءُ بالموتِ خشيةَ الفِتنة في الدِّينِ جائزٌ، وقد دعا به الصحابةُ والصالحون بعدَهم.

ولمَّا حَجَّ عمرُ رضي الله عنه آخرَ حَجَّةٍ حَجَّها: استلقى بالأبطَحِ ثم رَفعَ يديه وقال: اللهمَّ إنَّه قد كبرت سِنِّي ورَقَّ عَظْمِي وانتشرتْ رعيَّتي، فاقبضني إليكَ غيرَ مُضَيِّعٍ ولا مفتونٍ، ثم رجعَ إلى المدينةِ فما انسلخَ الشهرُ حتى قُتِلَ رضي الله عنه[١].

ودعا عليٌّ رضي الله عنه ربَّه أن يُرِيحَه من رَعيَّته، حيثُ سئمَ منهم، فقُتِلَ عن قَرِيبٍ[٢].

ودَعَتْ زينبُ بنتُ جحشٍ لمَّا جاءَها عطاءُ عمرَ من المالِ فاستكثَرَتْه وقالت: اللهمَّ لا يُدْرِكني عطاءٌ لعُمَر بعدَها، فماتَتْ قبلَ العطاءِ الثاني[٣].

ولما ضَجِرَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيز من رَعيَّتِهِ حيثُ ثَقُلَ عليهم قيامُه فيهم بالحَقِّ طَلَبَ مِنْ رجلٍ كانَ معروفاً بإجابةِ الدَّعوةِ أن يدعوَ له بالموتِ، فدعا له ولنفسِهِ بالموتِ فماتا[٤].

ودُعِيَ طائفةٌ من السَّلَفِ الصَّالح إلى ولايةِ القَضَاءِ، فاستَمْهلوا ثلاثةَ أيَّامٍ، فدعَوُا اللهَ لأنفسِهِمْ بالموتِ فماتُوا[٥].

---

(١) أخرجه الإمام مالك في «الموطأ» (٢٤٧٤).

(٢) روى عبد الرزاق في «مصنفه» (١٨٦٧٠) عن عَبيدة قال: سمعت علياً يخطب، يقول: «اللهم إني قد سئمتهم وسئموني، ومللتهم وملوني، فأرحني منهم وأرحهم مني، فما يَمنَعُ أشقاكم أن يخضبها بدم؟» ووضع يده على لحيته.

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١٠/ ١٠٦).

(٤) الرجل الصالح هو عبد الله بن أبي زكريا. والخبر في «سيرة عمر بن عبد العزيز» لابن عبد الحكم المصري (ص ٩٩).

(٥) هو الإمام الجليل قاسم بن ثابت السرقطسي الأندلسي، مؤلف كتاب «الدلائل في غريب الحديث»، =

واطُّلِعَ عَلى حالِ بعضِ الصَّالحين ومعاملاتِه التي كانتْ سِرًّا بينه وبين ربِّه، فسألَ اللهَ أنْ يَقبِضَهُ إليه خَوْفاً من فِتْنةِ الاشتهارِ، فماتَ. فإنَّ الشهرةَ بالخيرِ فتنةٌ، كما جاءَ في الحديثِ «كفى بالمرءِ[١] أنْ يُشارَ إليه بالأصابعِ»[٢]، فإنَّها فتنةٌ.

كانَ سفيانُ الثوريُّ يتمنَّى الموتَ كثيراً فسُئِلَ عن ذلكَ فقالَ: ما يُدْريني لعَلِّي أدخلُ في بِدْعة! لعلِّي أدخلُ فيما لا يَحِلُّ لي! لعلِّي أدخلُ في فِتْنَة! أكونُ قد متُّ فسبَقْتُ هذا[٣].

واعلم أنَّ الإنسانَ لا يخلو مِنْ فِتنةٍ. قال ابنُ مسعود: لا يَقُلْ أحدُكُم: أعوذُ باللهِ مِنَ الفِتَنِ، ولكنْ ليقلْ: أعوذُ باللهِ مِنْ مُضِلَّاتِ الفِتَن. ثمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨][٤] يشيرُ إلى أنه لا يُستعاذُ من المالِ والولدِ وهما فِتْنَة.

وفي «المُسْند»: أنَّ النبيّ ﷺ أَمَرَ أمَّ سَلَمَةَ أَنْ تقول: «اللهمَّ ربَّ النبيِّ محمدٍ اغفرْ لي ذنبي، وأذهبْ غيظَ قلبي، وأَجرني من مُضِلّاتِ الفِتَن ما أَبقيتني»[٥].

وقَدْ جعلَ النبيُّ النساءَ والأموالَ فِتنةً، ففي «الصحيحِ» عنه ﷺ قال: «ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النِّساءِ»[٦].

= المتوفى (سنة ٣٠٢هـ) رحمه الله تعالى، وخبر دعائه في «بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس» للضبي (١٣٠٠).

(١) زاد في (ت) و(ف): «فتنة» وليست من الحديث.

(٢) الحديث من رواية عمران بن الحصين رضي الله عنه. أخرجه الطبراني في «الكبير» ١٨ (٥١٨) ولفظه: «كفى بالمرء من الشر...» وأخرجه أيضاً ١٨ (٥٦٧) ولفظه: «كفى بالمرء من الإثم...». وقد روي هذا المعنى عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم.

(٣) أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٥٧١).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ ١١٥، ١٢٧).

(٥) «مسند الإمام أحمد» (٢٦٥٧٦) ولفظه: «ما أحييتنا» بدل «أبقيتني».

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

وفيه أيضاً: أنه ﷺ قال: «واللهِ ما الفقرَ أخشى عليكم، ولكنْ أخشى أن تُبْسَطَ عليكُم الدنيا كما بُسِطتْ على مَنْ كانَ قبلَكُم، فتنافَسُوها كما تنافسوها، وتهلِكَكُم[1] كما أهلكتهم»[2].

وفي «صحيحِ مُسْلِمٍ» عنه ﷺ قال: «اتَّقُوا النساءَ، فإنَّ أولَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانتْ في النساء»[3].

وفي «الترمذيِّ» أنَّه ﷺ قال: «لكلِّ أمةٍ فِتْنة، وفتنةُ أمَّتي المالُ»[4]. وقدْ قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] الآية. فالرجلُ فتنةٌ للمرأةِ والمرأةُ فتنةٌ للرجلِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقيرِ والفقيرُ فتنةٌ للغنيِّ، والفاجرُ فتنةٌ للبرِّ والبرُّ فتنةٌ للفاجرِ، والكافرُ فتنةٌ للمؤمنِ والمؤمنُ فتنةٌ للكافرِ. قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال اللهُ عزّ وجلَّ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، فجعلَ كلَّ ما يصيبُ الإنسانَ من شَرٍ أو خيرٍ فتنةً، يعني أنَّهُ محنةٌ يُمتَحَنُ بها، فإنْ أصيبَ بخيرٍ امتُحِنَ[5] به شُكْرُه، وإنْ أصيبَ بشَرٍّ امتُحِنَ[6] بهِ صَبْرُه.

وفتنةُ السَّرَّاءِ أشدُّ من فِتنةِ الضَّراءِ قال عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ: بُلِيْنَا بفتنةِ الضَّراءِ فصبَرنا، وبُلينا بفتنةِ السَّرَّاءِ فلمْ نصبِرْ[7].

---

(١) في (ش): «فتهلككم».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٨، ٤٠١٥) من حديث عمرو بن عوف الأنصاري.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٣٦) من حديث كعب بن عياض رضي الله عنه. وقال: حسن صحيح غريب.

(٥) في (ش): «استحق».

(٦) في (ش): «استحق».

(٧) أخرجه الترمذي (٢٤٦٤) بنحوه، وقال: حديث حسن.

وقالَ بعضُهم: فتنةُ الضَّراءِ يصبرُ عليها البَرُّ والفاجِرُ، ولا يصبِرُ على فتنةِ السَّرَّاءِ إلا صِدِّيقٌ[١].

ولمَّا ابتُلِيَ الإمامُ أحمدُ بفتنةِ الضَّراءِ صَبَرَ ولم يَجْزَعْ، وقال: كانتْ زيادةً في إيماني. فلما ابتلِيَ بفتنةِ السَّرَّاءِ جَزِعَ وتمنَّى الموتَ صباحاً ومساءً وخَشِيَ أنْ يكونَ نَقْصاً في دِينه[٢].

ثُمَّ إنَّ المؤمنَ لا بُدَّ أنْ يُفْتَنَ بشيءٍ مِنَ الفِتنِ المؤلِمَةِ الشَّاقَّةِ عليه، ليُمْتَحَنَ إيمانهُ، كما قال اللهُ تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]، ولكنَّ الله يلطُفُ بعبادِه المؤمنينَ في هذه الفِتَنِ، ويصبِّرُهُم عليها، ويثيبهم فيها ولا يُلْقيهم في فتنةٍ مُضِلَّةٍ مُهْلِكَةٍ[٣] تذهبُ بدينهم، بل تمرُّ عليهمُ الفتَنُ وهم فيها في عَافية.

وخَرَّجَ ابنُ أبي الدُّنيا مِنْ حديثِ ابنِ عُمر مرفوعاً: «إنَّ لله ضنائِنَ من عِباده،

---

(١) هذا كأنه مقتبس من كلام سهل بن عبد الله التستري رحمه الله، الذي أخرجه أبو نُعيم في «الحلية» (١٠/ ١٩٧) قال: «ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله، ولكن من اجتنب ما نهى عنه الله صار حبيب الله. ولا يجتنب الآثام إلا صدِّيق مقرب. وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر».

(٢) روى ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» (ص ٥٠٧) عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله قال: «هذا أمر أشدُّ عليَّ من ذلك! ذاك فتنة الدين: الضرب والحبس كنت أحتمله في نفسي، وهذا فتنة الدنيا».
وروي أيضاً (ص ٥٠٢) قوله: «إني لأتمنى الموتَ صباحاً ومساءً أخاف أن أفتن بالدنيا. لقد تفكرت البارحة، فقلت: هذهِ محنتان: امتحنت بالدِّين، وهذه محنة بالدنيا. وقال لي ونحن بالعسكر: ألا تعجب! كان قُوتي فيما مضى أرغفة، وقد ذهبت عني شهوة الطعام فما أشتهيه. قد كنت في السجن آكل، وذلك عندي زيادة في إيماني، وهذا نقصان».

(٣) في (ش): «مهلكة مضلة».

يَغْذُوهم في رحمته، ويحييهم في عافيته، ويتوفَّاهُم إلى جَنَّته، أولئك الذين تَمُرُّ عليهم الفتنُ كَقِطَعِ الليلِ المُظْلِمِ وهُمْ مِنْها[١] في عافيةٍ»[٢].

والفتنُ الصِّغارُ التي يُبْتَلى بها المرءُ في أهلِه ومالِه وولدِه وجارِه تُكَفِّرُها الطاعاتُ مِنَ الصَّلاةِ والصِّيامِ والصَّدقَةِ. كذا جاءَ في حديثِ حُذيفَةَ[٣].

ورُوِيَ عنهُ أنه سألَ النبيَّ ﷺ قال: إنَّ في لِساني ذَرَباً، وإنَّ عامةَ ذلكَ على أهلي. فقال له: «أينَ أنتَ عنِ الاستغفارِ»[٤].

وأمَّا الفتنُ المضِلَّةُ التي يُخشى منها فسادُ الدِّينِ فهي التي يُستعاذُ منها، ويُسأَلُ الموتُ قبلَها، فمنْ ماتَ قبلَ وقُوعِه في شيءٍ من هذهِ الفِتَنِ فقدْ حفظهُ الله تعالى وحَمَاه.

وفي «المسند» عن محمودِ بنِ لَبيد، عن النبيِّ ﷺ قال: «اثنتانِ يَكرَهُهُما ابنُ آدم: يكرهُ الموتَ، والموتُ خيرٌ للمُؤمنِ من الفِتنةِ، ويكرهُ قِلَّةَ المالِ، وقلةُ المالِ أقلُّ للحِساب»[٥].

وقوله ﷺ «وأسألكَ حُبَّكَ وحُبَّ من يُحِبُّك وحُبَّ العملِ الذي يُبَلِّغُني حُبَّك»: هذا الدعاءُ يجمعُ كلَّ خيرٍ فإنَّ الأفعالَ الاختياريَّةَ مِنَ العِبادِ إنما تنشأُ عن محبةٍ وإرادةٍ، فإذا كانتْ محبةُ اللهِ ثابتةً في قلبِ العبدِ: نشأتْ عنها حركاتُ الجوارحِ؛

---

(١) في (ف): «عنها»، وفي (ت): «فيها».

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٢).

(٣) الذي أخرجه البخاري (٥٢٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٣٦٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٤٨ ـ ٤٥٣)، وابن ماجه (٣٨١٧).
ذَرِبَ لسانُه: إذا كان حادَّ اللسان، لا يبالي ما قال.

(٥) أخرجه أحمد (٢٣٦٢٥).

فكانت بحسبِ ما يُحبُّه اللهُ ويرتَضِيه؛ فـأحـبَّ ما يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ من الأعمالِ والأقوالِ كلِّها؛ ففعلَ حينئذٍ الخيراتِ كلَّها، وَتَركَ المنكراتِ كلَّها، وأحبَّ من يحبهُ اللهُ مِنْ خَلْقِه.

وهذا الدعاءُ كانت الأنبياءُ عليهم السلام تدعُوا به، كما في «الترمذيِّ»، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ داودَ عليه السلام كان يقول: اللهمَّ إني أسألكَ حبَّكَ وحُبَّ مْنْ يحبُّكَ وحُبَّ عملٍ يبلِّغُني حبَّك»[١].

وفيه أيضاً: أنَّ النبي ﷺ كان يدعو: «اللهمَّ ارزُقني حُبَّك وحُبَّ مَنْ يُحِبُّك وحُبَّ عملٍ يبلِّغني إلى حُبِّك[٢] اللهمَّ ما رزقتَني مما أُحِبُّ فاجعله قوةً لي فيما تُحِبُّ، وما زويتَ عنِّي مما أحبُّ فاجعلهُ فراغاً لي فيما تُحِبُّ»[٣].

وفي حديثٍ مرسلٍ خَرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا وغيرُه: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «اللهمَّ اجعلْ حُبَّكَ أحبَّ الأشياءِ إليَّ، وخشيَتَك أخوفَ الأشياءِ عِندي، واقطعْ عني حاجاتِ الدُّنيا بالشَّوقِ إلى لِقائِك، وإذا أقررتَ أعيُنَ أهلِ الدُّنيا من دُنياهم فأقرر عيني مِنْ عبادَتِك»[٤].

ومـن كان أكبـرَ همِّـه طلبُ محبَّـةِ اللهِ أعطـاهُ اللهُ عز وجـل فوقَ ما يريـدُ[٥] من الدنيـا تَبَعاً.

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه (٣٤٩٠) وقال: «حسن غريب».

(٢) هذه الجملة: «وحب من يحبك وحب عمل يبلغني إلى حبك» مدرجة ليست من هذا الحديث، وإنما فيه: «وحبَّ من ينفعني حبُّه عندك»

(٣) أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن يزيد الخطمي رضي الله عنه (٣٤٩١) وقال: «حسن غريب».

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٢٨٢) عن الهيثم بن مالك الطائي رحمه الله تعالى مرسلًا.

(٥) في (ش): «يريده».

قال بعضُ السَّلفِ: لما تُوفِّي داودُ عليه السلامُ أرسلَ اللهُ عزَّ وجلَّ إلى سليمان عليه السلام: ألكَ حاجةٌ تسألني إيَّاها؟ فقالَ سليمانُ: اسألُ الله أنْ يجعلَ قلبي يحبُّه كما كان قلبُ أبي داودَ يحبُّه، وأنْ يجعلَ قلبي يخشاهُ كما كان قلبُ أبي داودَ يخشاه، فشكرَ اللهُ له ذلكَ وأعطاه مُلْكاً لا ينبغي لأحدٍ مِنْ بعدِه[1].

ومحبة الله تعالى على درجتين:

إحداهما: واجبةٌ وهي المحبةُ التي تُوجِبُ للعبدِ محبَّة ما يحبُّه اللهُ من الواجباتِ، وكراهةَ ما يكرهُه من المحرماتِ، فإنَّ المحبةَ التامَّة تقتضي الموافقةَ لمن يحبُّه[2] في محبَّةِ ما يحبُّه، وكراهِيَةِ ما يكرهُهُ خصوصاً فيما[3] يحبُّه ويكرَهُهُ من المحبِّ نفسِه، فلا تَصِحُّ المحبَّةُ بدونِ فعلِ ما يحبُّه المحبوبُ مِنْ مُحبِّهِ، وكراهَةِ ما يكرهُهُ المحبوبُ من مُحِبِّه.

سُئِلَ بعضُ العارفين عن المحبَّةِ فقال: الموافقةُ في جميعِ الأحوالِ، وأنشد:

ولو قلتَ لي[4] مُتْ مُتُّ سَمعاً وطاعةً وقلتُ لداعي الموتِ أهلاً ومَرْحبا[5]

وأنشد آخرُ منهم:

---

(١) أخرجه ابن الجنيد الختلي في «المحبة» (٧٩). عن صالح بن مسمار قال: بلغنا... وصالح بن مسمار من شيوخ مَعْمَر.

(٢) في (ت) و(ف): «للمحبوب».

(٣) في (ت) و(ف): «لمن».

(٤) في (ت) و(ف): «ولو قيل مت».

(٥) هذا قول العبد الصالح رويم بن أحمد البغدادي الصوفي رحمه الله تعالى لمَّا سُئل عن المحبة؛ فقال وأنشد. أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٣٠١).

تعصِي الإلـهَ وأنـتَ تزعـم[١] حـبَّـهُ هــذا لعَمْـري فـي القيـاسِ فَظِيـعُ[٢]

لـو كان حُبُّـكَ صادقـاً لأطـعـتَـه إن المحـبَّ لمـنْ يُحِـبُّ مطيـعُ[٣]

ومتى أخلَّ العبدُ ببعضِ الواجباتِ، أو ارتكبَ بعض المحرَّماتِ فمحبَّتُه لربِّه غيرُ تامةٍ، فالواجبُ عليه المبادرةُ بالتَّوبةِ والاجتهادِ في تكميلِ المحبَّةِ المقتضِيَةِ[٤] لفعلِ الواجباتِ كلِّها واجتنابِ المحرَّماتِ كلِّها، وهذا معنى قول النبيِّ ﷺ: «لا يزني الزَّاني حينَ يزني وهو مُؤمن، ولا يسرقُ السَّارقُ حين يسرقُ وهو مؤمن، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مُؤمن»[٥]، فإنَّ الإيمانَ الكاملَ يقتضي محبةَ ما يحبُّه اللهُ وكراهةَ ما يكرَهُهُ اللهُ، والعمل بمقتَضى[٦] ذلك. فلا يرتكبُ أحدٌ شيئاً من المحرماتِ أو يخلُّ بشيءٍ من الواجباتِ إلا لتقديمِ هوى النَّفسِ المقتضِي لارتكابِ ذلكَ على محبَّةِ اللهِ تعالى المقتضيةِ[٧] لخلافِهِ[٨].

الدرجةُ الثانيةُ: من المحبَّةِ: درجةُ المقرَّبين، وهي أنْ يمتلئَ القلبُ بمحبةِ اللهِ حتى توجِبَ له محبَّةَ النوافلِ والاجتهادَ فيها، وكراهةَ المكروهاتِ والانكفافَ عنها،

---

(١) كذا في (ش) وحاشية (ت) و(ف). وفي (ت) و(ف): «تظهر».

(٢) في (ت) و(ف): «شنيع».

(٣) هذان البيتان مما يكثر جدًّا التمثل بهما ونُسبا إلى كثير من القائلين، فنسبا لذي الرمة، ولأبي العتاهية، ولابن المبارك، وللشافعي، ولمحمود الوراق، وتمثَّل بهما كثير من الأكابر. والشطر الثاني من البيت الأول ذكر بألفاظ متعددة.

(٤) في (ش): «المفضية».

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (ت) و(ف): «يقتضي».

(٧) في (ش): «المفضية».

(٨) في حاشية (ش): «بلغ مقابلة».

والرِّضَا بالأقضيةِ والأقدارِ المؤلمةِ للنفوسِ بصدُورها عن المحبوبِ، كما قال عامرُ بنُ عبد قيس: أحببتُ اللهَ حُبّاً هَوَّنَ عليَّ كلَّ مصيبةٍ، ورضَّاني بكلِّ بَلِيَّة، فلا أُبالي مع حُبِّي إياهُ على ما أصبحتُ ولا على ما أمسيتُ(١).

وقال عُمرُ بنُ عبدِ العزيز لمَّا ماتَ ولدُه الصَّالحُ: إنَّ الله أحبَّ قبضَه، وإنِّي أعوُذ باللهِ أن يكونَ لي محبةٌ في شيءٍ من الأمورِ يخالِفُ محبَّةَ اللهِ(٢)، وكانَ يقولُ: أصبحتُ ومالي سرورٌ إلا في مواقعِ القضاءِ والقدرِ(٣). وأنشد بعضُهم:

يا مَنْ يَعِزُّ علينا أنْ نُفَارِقَهُم ... وجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكُمْ عَدَمُ

إنْ كانَ سَرَّكُمُ ما قَدْ بُلِيتُ بِهِ ... فَما لجُرْحٍ إذا أرضَاكُمُ أَلَمُ(٤)

ولبعضهم:

وحَسبُ سلطانِ الهوى ... أنَّه يُلَذُّ فيه كلُّ ما يُؤلم(٥)

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الأولياء» (٧١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٨٩)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٢٦/ ٢٩) وعندهم: «حباً سهل علي كل مصيبة ورضاني بكل قضية».

وعامر بن عبد قيس ممن انتهى إليهم الزهد من التابعين.

(٢) من كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن في وفاة ابنه عبد الملك، أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٥/ ٣٥٧).

(٣) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٧/ ٣٦٣)، وابن عبد الحكم في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (ص ٩٧)، وابن أبي الدنيا في «الرضا عن الله» (١٠، ٤٦) بألفاظ مقاربة.

(٤) البيتان من قصيدة من مشهور شعر المتنبي في سيف الدولة. وهما في ديوانه (ص ٣٣٣)، وصدر البيت الثاني:

إن كان سركم ما قال حاسدنا

(٥) البيت من أبيات لأبي الخطاب محمد بن علي البغدادي، المعروف بالجَبُّلي. أنشدها له ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٥٤/ ٣٨١).

كانَ عمارُ بنُ ياسرٍ يقول: اللهمَّ لو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ عني أنْ أرميَ بنفسِي مِنْ هذا الجبلِ فأتردَّى فأَسقُطَ فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ عنِّي أنْ أوقدَ ناراً عظيمةً فأقعَ فيها فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ عني أنْ أُلقِيَ نفسي في الماءِ فأُغَرِّقَ نفسي فعلتُ، وإني لا أقولُ هذا إلا أريدُ وجهَكَ، وأنا أرجو أنْ لا تُخَيِّبني وأنا أريدُ وجهَك[1].

وقُتِلَ لبعضِ الصَّالحين ولدانِ في الجهاد، فعزَّاهُ الناسُ فيهما، فبكى وقال: ما أبكي لفَقْدِهما، إنما أبكاني[2] كيفَ كان رِضاهُما عَنِ اللهِ حيثُ أَخذَتْهُما السيوفُ[3].

وكانَ بعضُ العارفينَ يطوفُ بالبيتِ فهَجَمت القرامطةُ على الناسِ فقتلُوهم في الطَّوافِ، فوصَلُوا إليه فلم يقطع الطَّوافَ حتى سقَطَ من ضَرْبِ السُّيوفِ صَرِيعاً وأنشدَ:

تَرى المُحبِّين صرعى في ديارِهم ... كفتيةِ الكهفِ لا يدرونَ كم[4] لَبِثُوا[5]

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٣٨)، ومن طريقه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣/ ٤٥٧)، وفي (ش): «وإنما أريد وجهك».

(٢) في (ت) و(ف): «أبكي».

(٣) ذكره المصنف أيضاً في رسالته «شرح حديث لبيك اللهم لبيك».

(٤) في (ف): «ما».

(٥) العارف هو علي بن بابويه الصوفي المحدّث، ذكره الفاسي في «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» (٥/ ٢٤٢). وكان استشهاده في ذي الحجة (سنة ٣١٧هـ) رحمه الله تعالى عند استيلاء الزنادقة القرامطة على البلد الحرام، وإلحادهم فيه، وقتلهم الحُجَّاج، وكفرهم بالله العظيم. انظر: «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (١٣/ ٢٨٣).

قال بعضُ العارفين: إنْ كنتَ تسمحُ ببذلِ روحِكَ في هذه الطريقِ، وإلا فلا تَشتغلْ بالتُّرهاتِ[1].

خاطِرْ برُوحِكَ في هَوانا واسترحْ ... إنْ شئتَ تحظى بالمحلِّ الأعظَمِ

لا يَشْغَلَنَّكَ شاغِلٌ عنْ وَصْلِنا ... وانهضْ على قَدَمِ الرَّجا وتقدَّمِ[2]

أقلُّ ثمنِ المحبَّةِ بذلُ الروح:

بدم المُحِبِّ يباعُ وصلُهُم ... فمنْ ذا[3] الذي يبتاعُ بالثَّمَنِ[4]

ولمَّا كانتْ محبةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لها لوازم، وهي محبَّةُ ما يحبُّه اللهُ عزَّ وجلَّ من الأشخاصِ والأعمالِ، وكراهةُ ما يكرهُهُ من ذلكَ سألَ النبيُّ ﷺ اللهَ تعالى مع محبَّتِهِ شيئين آخرين:

أحدُهما: محبةُ مَنْ يُحِبُّ ما يحبُّه الله تعالى، فإنَّ مَنْ أحبَّ اللهَ أحبَّ أَحِبَّاءَه فيه، ووالاهُم وأبغضَ أعداءَه وعاداهم، كما قال النبي ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ وجَدَ بهنَّ

---

(١) قال محمد بن خفيف: سألت رويم بن أحمد فقلت له: أوصني فقال: «أقل ما في هذا الأمر: بذل الروح، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا، وإلا فلا تشتغل بترهات الصوفية» أخرجه البيهقي في «الزهد الكبير» (٧٣٢)، والقشيري في «الرسالة» (١/ ٨٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٧).

(٢) البيتان لأبي الثناء تقي الدين محمود بن علي الدقوقي ثم البغدادي الحنبلي، المتوفى (سنة ٧٣٣هـ) رحمه الله تعالى من قصيدة طويلة في مدح النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم. انظر: «ذيل طبقات الحنابلة» للمصنف رحمه الله (٥/ ٤٤).

(٣) في (ف): «هذا».

(٤) ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٧).

حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للهِ...» الحديث[١].

وأعظمُ من تَجِبُ محبَّتُه في الله تعالى: أنبياؤه ورُسُلُه، وأعظَمُهم نبيُّه محمدٌ ﷺ الذي افترضَ اللهُ على الخَلْقِ كلِّهم متابعَتَهُ، وجعلَ متابَعَتَه علامةً لصحَّةِ محبَّته، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾[٢] [آل عمران: ٣١].

وتوعَّدَ من قدَّمَ محبةَ شيءٍ من المخلوقينَ على محبَّتِه ومحبَّةِ رسولِهِ ومحبَّةِ الجهادِ في سبيلِه في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

ووصفَ المحبِّينَ له باللِّينِ للمؤمنينَ من الرأفةِ بهم والمحبَّةِ لهم، والشِّدَّةِ على الكافرينَ من البُغْضِ لهم، والجهادِ في سبيلِهِ؛ فقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ الآية [المائدة: ٥٤].

والثاني: محبةُ ما يُحبُّه الله تعالى من الأعمالِ، وبها يُبْلَغُ إلى حُبِّه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ درجةَ المحبَّةِ لله تعالى إنما تُنالُ بطاعَتِه وبفعلِ ما يُحبُّه، فإذا امتثلَ العبدُ أوامرَ مولاه، وفعلَ ما يحبُّه أحبَّه اللهُ تعالى ورَقَّاهُ إلى درجةِ محبَّته، كما في الحديث

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أنس رضي الله عنه (١٦).

(٢) وهذه الآية واردة في محبة الله جل جلاله وأن علامةَ محبةِ الله تعالى: اتباعُ رسوله ﷺ.

أما تفسير محبة رسول الله ﷺ بأنها مجرد اتباعه، فأخطأ مَنْ استدل عليه بالآية.

وإنما الاتباع من لوازم المحبة، فإن وجدت المحبةُ ولم يوجد الاتباعُ كان ذلك علامة على نقصانها.

أما الاتباع بلا محبة، فذلك من جملة النفاق عياذاً بالله.

الإلهي الذي خَرَّجَهُ البخاريُّ: «وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بمثْلِ أداءِ ما افترضتُ عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافِلِ حتَّى أُحِبَّه»(١)، فأفضلُ ما استُجلِبَتْ به محبةُ اللهِ عزَّ وجلَّ: فعلُ الواجباتِ وتركُ المحرَّماتِ، ولهذا جعلَ النبيُّ ﷺ من علاماتِ وجدان حلاوةِ الإيمان: «أنْ يكرَه أن يرجع إلى الكُفرِ كما يكرَهُ أنْ يُلْقى في النَّارِ»(٢).

وسُئِلَ ذو النُّونِ: متى أحبُّ ربي؟ قال: إذا كانَ ما يكرَهُهُ عندَك أَمَرَّ مِنَ الصَّبِرِ(٣).

ثم بعدَ ذلك: الاجتهادُ(٤) في نوافلِ الطَّاعاتِ، وتركِ دقائقِ المكروهاتِ والمُشْتَبهات، ومن أعظمِ ما تحصل به محبَّة اللهِ تعالى مِنَ النَّوافِلِ: تلاوةُ القرآنِ، وخُصوصاً مع التَّدبُّرِ. قال ابن مسعود: لا يسألْ أحدُكم عِنْ نفسِه إلا القرآنَ، فمنْ أحبَّ القرآنَ فهو يحبُّ اللهَ ورسولَه(٥). ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ لمنْ قالَ إنِّي أُحِبُّ سورةَ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لأنَّها صفةُ الرحمنِ، فقال: «أخبروه أنَّ اللهَ يحبُّه»(٦).

وقالَ أبو سَلَمة بنُ عبدِ الرحمن: لمَّا قدمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ خطَبَ فقال في خُطبَته: «إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله. قدْ أفلحَ من زيَّنه اللهُ في قِلْبه، وأدخَلَه في الإسلامِ بعدَ الكُفْر، واختارَه على ما سِواهُ من الأحاديثِ، إنَّه أحسنُ الحديثِ وأبلَغُه، أحبُّوا مَنْ أحبَّ اللهَ، أحبُّوا اللهَ مِن كُلِّ قلوبِكُم»(٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) جزء من الحديث السابق: «ثلاث من كن فيه...».

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٦٣) (٩/ ٣٩٢). والصَّبِرُ: عصارة مُرَّة.

(٤) في (ش): «الجهاد».

(٥) أخرجه نحوه الطبراني في «الكبير» (٨٦٥٧)، وابن سمعون في «أماليه» (١٧١).

(٦) أخرجه البخاري من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها (٧٣٧٥).

(٧) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٢٥). وهو في «سيرة ابن هشام» أيضاً (٢/ ١٠٦).

وكانَ بعضُهم يُكثرُ تلاوةَ القرآنِ، ثم فَتَرَ عن ذلكَ فرأى في المنامِ قائلاً يقولُ له:

إنْ كنتَ تزعُمُ حُبِّي فَلِمْ جفوتَ كتابي؟
أما تدبرتَ ما فيـ ـه من لطيف عتابي!

فاستيقظَ وعادَ إلى تلاوتِه[١].

ومنَ الأعمالِ التي توصِلُ إلى محبَّةِ الله تعالى، وهي مِنْ أعظَمِ علاماتِ المحبين: كثرةُ ذِكْرِ الله عَزَّ وجَلَّ بالقَلْبِ واللِّسانِ. قال بعضُهُم: ما أدمَنَ أحدٌ ذِكْرَ اللهِ إلا وأفادَ مِنْهُ محبَّةَ الله تعالى[٢].

وقال ذو النون: مَنْ أدمنَ ذِكرَ اللهِ قَذَفَ اللهُ في قَلبه نورَ الاشتياقِ إليه[٣].

وقالَ بعضُ التابعين: علامةُ حُبِّ اللهِ تعالى كثرةُ ذِكره، فإنَّكَ لَنْ تحِبَّ شيئاً إلا أكثرتَ ذكرَهُ[٤].

وقالَ فتحٌ المَوْصِلِيُّ: المحبُّ للهِ لا يَجِدُ معَ حُبِّ اللهِ للدنيا لَذَّةً، ولا يَغْفل عَنْ ذِكْرِ الله طَرْفةً[٥].

المحبُّونَ إنْ نطقُوا نَطَقُوا بالذِّكْرِ، وإنْ سَكَتُوا اشتَغَلُوا بالفِكْرِ:

---

(١) حكاه أحمد بن جعفر الأرتاحي عن شيخ في بلدة أولاس، قال: كان لي ورد أقرأ فيه جزوين من القرآن كل ليلة، قال: فنمت عنه، فنوديت من زاوية البيت... رواه ابن العديم في «بغية الطلب في تاريخ حلب» (٢/ ٦٠٩).

(٢) قائله إبراهيم ابن الجنيد الختلي في كتابه «المحبة لله سبحانه» (٥) باختلاف يسير في ألفاظه، ونقله (٢٤٧) عن بعضهم.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ٣٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٨٥٩).

(٤) أخرجه إبراهيم بن الجنيد في «المحبة لله» (٣٢) عن الربيع بن أنس عن بعض أصحابه. وتحرف ابن أنس في المطبوعات إلى: عن أنس!

(٥) أخرجه إبراهيم بن الجنيد في «المحبة لله» (٨).

فإنْ نطَقْتُ فلم ألفِظْ بغيرِكُمُ وإنْ سكَتُّ فأنتُمْ عقد إضمارِي[١]

ومن علاماتِ المحبِّين لله، وهو مما يحصل به المحبة أيضاً: حُبُّ الخلوة بمناجاةِ الله تعالى وخُصوصًا في ظُلْمة الليلِ.

اللَّيلُ لي ولأحبابي أُسامِرُهُم وأَنْتَجِيهم كَيْ يَسْمَحُوا بوِصَالي[٢]

قال الفُضيلُ: يقول اللهُ عزَّ وجَلَّ: كَذَبَ مَنْ ادَّعى محبَّتي، فإذا جَنَّ[٣] الليلُ[٤] نامَ عنِّي، أليسَ كلُّ حبيبٍ يحِبُّ خلوةَ حبيبِهِ؟ ها أنا ذا مُطَّلِعٌ على أحبابي، إذا جَنَّهُمُ الليلُ جعلتُ أبصارَهُم في قلوبهم، ومَثُلَت نفسي بينَ أعينهم، فخَاطبوني على المُشَاهَدَةِ، وكلَّموني على حُضوري، غداً أُقِرُّ عينَ أحبابي في جنَّاتي[٥].

تنامُ عيناكَ وتَشْكو الهوى لو كنتَ صَبًّا لم تكن نائِماً[٦]

قلوبُ المحبِّينَ جمرةٌ تحتَ فَحْمَةِ اللَّيل، كلما هَبَّ عليها نَسيمُ السَّحَرِ التهبَتْ. وأُنشد[٧]:

---

(١) نسب نحوه إلى أبي بكر العنبري الصوفي البغدادي في «يتيمة الدهر» للثعالبي (٥/ ٧٧).

(٢) الشطر الثاني في (ش): «قد اصطفيتهم كي يسمعوا ويعوا» وقد سبق ذكره بلفظ (ش) ضمن أبيات آخر الفصل الثاني من هذه الرسالة، وفي (ت) و(ف): «وانتجبتهم»، وهو مصحف عن المثبت.

(٣) في (ش): «جنَّه».

(٤) هنا سقطت الورقة الأخيرة من النسخة (ش) وألحق مكانها ورقة متأخرة كتب فيها بخط أحدث بقية الكتاب.

(٥) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٩٩) ولعله من الكتب السابقة. وذكره ابن الجوزي في عدد من كتبه.

(٦) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص ٤٧٠).

(٧) و«أنشد» زيادة من (ش).

يُذَكِّرُنـي مَـرُّ النَّسـيمِ عهـودَكُـمْ فأزدادُ شَـوقاً كلَّمـا هَبَّـتِ الرِّيـحُ
أُرانـي إذا مـا أَظْلَـمَ اللّيـلُ أشـرقَـتْ بقَـلْبيَ مِـنْ نَـارِ الغَـرامِ مَصَابِيْـحُ[1]

كلَّما جَنَّ الغَاسِقُ حَنَّ العَاشِقُ:

فلـو أَنَّكَ أبصـرتَ أهلَ الهـوى إذا غـابَـتِ الأنْـجُـمُ الطُّلَّعُ
فهـذا ينـوحُ علـى ذَنْبِـهِ وهَـذا يُصَلِّـي وذا يَركَـعُ[2]

مَنْ لَمْ يَكُنْ له مِثْلُ تقواهُم لَمْ يَدْرِ ما الذي أبكاهُم، ومَنْ لم يُشاهِدْ جمالَ يُوسف[3] لَمْ يَدْرِ ما الذي آلَمَ يعقوب.

سُئِلَ السَّرِيُّ السَّقَطيُّ عَنْ حالِه فأنشَدَ:

مَـنْ لَـمْ يَبِـتْ والحـبُّ حَشْـوُ فؤادِه لـم يَـدْرِ كيـفَ تفتُّتُ الأكبـادِ[4]

أينَ رجالُ الليل؟ أينَ ابنُ أدهمَ والفضيل؟ ذهبَ الأبطالُ وبقيَ كلُّ بطَّال! يا مَنْ رَضِي من الزُّهدِ بالزي، ومن الفَقْرِ بالاسم، ومن التَّصَوُّفِ بالصُّوف، ومِنَ التَّسبيحِ بالسُّبَح، أينَ فَضْلُ فُضَيلٍ؟ أينَ جِدُّ الجُنيد؟ أينَ سِرُّ السَّرِيِّ؟ أين بِشْرُ بِشْر؟ أين هِمَّة ابنِ أدهمَ؟ ويحكَ إنْ لم تقدرْ على مَعرفةِ معروفٍ فاندب على رَبْعِ رابِعَة:

هاتيـكَ ربُوعُهـم وفيهـا كانوا بانُـوا عنهـا فليتَهُـم مـا بانـوا
ناديـتُ وفـي حَشاشَـتي نيـرانُ يـا دارُ متـى تحـوَّلَ السُّـكانُ[5]

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «المدهش» (ص ٥٠٢).

(٢) ذكرهما المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٩٦).

(٣) في حاشية (ف): «لعله: المحبوب».

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٨)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١١٩).

(٥) ذكرهما ابن الجوزي في «المدهش» (ص ٢١٠).

يا مَنْ كانَ لهُ قَلْبٌ فانقلب! يا مَنْ كان له وقتٌ مع اللهِ فذهبْ! قيامُ الأسحارِ يستوحِشُ لك. صيامُ النهارِ يسألُ عنك. ليالي الوِصَالِ تُعاتِبُكَ على انقطاعك[١].

تَشَاغلْتُمُ عنَّا بصُحْبَةِ غيرنا ... وأظهرتُمُ الهجران ما هَكذا كُنَّا

وأقْسَمْتمُ أن لا تَحُولوا عن الهَوى ... فقَدْ وحياةِ الحُبِّ حُلتُم وما حُلْنا

ليالِيَ كُنَّا نجتَني مِنْ ثمارِكُم ... فقلبي إلى تلكَ الليالي قَدْ حَنَّا[٢]

إخواني! مجالسُ الذِّكْرِ شرابُ المحبِّين وترياقُ المذنبين. ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

مجالسُ الذِّكرِ مآتمُ الأحزانِ، فهذا يبكي لذنوبهِ، وهذا يندب لعيُوبهِ، وهذا يتأسَّفُ على فواتِ مطلوبه، وهذا يتلهَّفُ لإعراضِ محبوبه، وهذا يبوح بوَجْدِه، وهذا ينوحُ على فَقْده.

ما أذكرُ عَيْشَنا الذي قَدْ سَلَفا

إلا وَجَفَ القلبُ وكم قَدْ وَجَفا

وَاهاً لزماننا الذي كان صَفَا

وا أسفاً لفقده[٣] وا أسفا[٤]

---

(١) في (ش): «وأنشد».

(٢) أنشده أبو بكر الشبلي وقد سأله رجل ما تقول في رجل كان له حظ من قيام الليل، ثم عاوده فهو يجهد أن يناله فلا يقدر؟ رواه أبو طاهر السِّلفي في «الطيوريات» (١٠٧٨). وقوله: «قد حنَّا» كذا في جميع النسخ الخطية التي وقفنا عليها، وكذا هي في المصادر، وصوابه: «لقد حنَّا» ليستقيم الوزن به.

(٣) في (ت) و(ف): «وا أسفاً وهل يرد فائتا».

(٤) البيتان من بحر الدوبيت، وقد ذكرهما المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٤٩، ٤٢٤)، والشطر الثاني ثمة:

هل يرجع بعد فوته وا أسفا ... وا أسفا لرده وا أسفا

غيره:

يـــا ليتَنَـــا بزمـــزمٍ والـحِـجْـــرِ
يـــا جيرتنـــا[1] قُبَيْـــلَ يـــومِ النَّفْـــرِ
هَلْ يرجعُ[2] صَفْوُ ما مضى من عُمري
أدريْ مـا كـــانَ ليـتـنـي لا أدريْ[3]

كأنِّـي أرى الخِلَـعَ قـد خُلِعَتْ على المقبُولين، كأنـي أرى الملائكـةَ تُصَافِحُ التَّائبيـن، فتعالـوا نبكـي علـى المَطْرودين.

مـا زلـتَ دَهْـراً للرضـى[4] متعَرِّضا ولطـالـمـا قَـدْ كنـتَ عنَّـا مُعْرِضـا
جانبتَنـا دَهْـراً فلـمـــا لـــم تـجـــدْ عِوَضاً سِـوانا صِـرتَ تبكي مـا مَضى
لـو كنـتَ لازمـتَ الوقـوفَ بِبَابِنَـا لَلَبِسْـتَ مِـنْ إحسـانِنَا خِلَـعَ الرِّضـا
ولقـدْ[5] تركـتَ حُقُوقَنـا وهَجَرْتنـا فلـذاكَ ضـاقَ عليـك مُتَّسِـعُ الفَضَـا

تمَّ بحمدِ اللهِ وعَوْنِهِ[6]. اللهمَّ اجعلْ صـلواتِـك ورحمتَك وبركاتِك على سيِّد المرسلينَ، وإمام المتقين، وخاتم النبيين محمدٍ عبدِك ورسولِك، إمامِ الخيرِ، وقائدِ الخيرِ، ورسولِ الرَّحمة. اللهم ابعثْهُ مَقاماً محموداً يغبِطُهُ فيه الأوَّلُون والآخِرُون.

* * *

(١) في (ت) و(ف): «نرى جيرتنا».

(٢) في (ش): «يعود».

(٣) البيتان من بحر الدوبيت، وقد ذكرهما المصنف أيضاً في «لطائف المعارف» (ص ٤٢٤).

(٤) في (ت) و(ش): «للقلى». وفي نسخة: «اللقا».

(٥) في (ش): «لكن».

(٦) في (ش): «تم بحمد الله تعالى». وهنا تنتهي النسخة، وما بعده ليس فيها.

* ومِنْ فوائِدِه رحمةُ اللهِ عليه في قولِه تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] يدلُّ على أنَّ فعلَ الخيراتِ يُسمَّى إيماناً، وأنَّ تركَ بعضِ الطَّاعاتِ يُسمَّى كفراً، فإنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ أنَّ أهلَ الكِتابِ كانوا يَقتُلُون بعضَهم بعضاً، ويُخرِجُونَهم من ديارهم نُصرةً لحلفائهم من الأَوسِ والخزرج، وقَدْ حُرِّمَ ذلكَ عليهم في كِتابهم، وقَدْ أقرُّوا بذلكَ وشَهِدوا به، ثم يَفْدُونَهم امتثالاً لِما أُمِروا به في التَّوراةِ، فسَمَّى فعلَهم للفِداءِ إيماناً بالكتابِ، وقَتْلَهم وإخراجَهم مِنَ الدِّيار كُفراً بالكِتابِ، وهذا يُشبِهُ قولَه ﷺ: «سِبابُ المسلمِ فُسوقٌ وقِتالُه كُفْر»[1].

وهذا لم أرَ أحداً من المُفَسِّرينَ تعرَّضَ له. وكذلكَ يُؤخَذُ ذلكَ من قولِه تعالى ردًّا عليهم دعوى الإيمانِ بما أُنزلَ عليهم أنَّهم قالوا ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ وقال: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣] فدلَّ على أنَّ عصيانَهم لمَّا أُمِروا بالإيمانِ به يُنافي الإيمانَ.

تمَّ والحمدُ لله وحدَه[2]، وكان الفراغ منه يوم الثلاثاء في سابع عشر المحرم سنة اثنين وخمسين وثمان مائة، والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ وآلِهِ وصحبِه، وسلم تسليماً إلى يوم الدين، ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) هنا تنتهي النسخة (ف)، وبعد هذا: «وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه، وحسبنا الله ونعم الوكيل».

والخاتمة المثبتة من (ت).